لُغة الجسد في التّراث العربيّ *

د. خالد عبد الرؤوف الجبر **

* تاريخ التسليم: 15/ 2/ 2014م، تاريخ القبول: 10/ 3/ 2014م.
** أستاذ مشارك/ قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة البترا/ الأردنّ.

ملخّص:

يسعى الباحثُ هنا إلى كشف اهتمام التّراث العربيّ، خاصَّةً تراثَ الفلاسفة، وبعض النقّاد واللغويّين أيضًا، بحقلٍ يُظَنُّ أنّ التراث العربيَّ خلْوٌ منه، وهو حقل الدّلالات غير اللفظيّة. والقصدُ هُنا إلى بيانٍ ما رسَخ في الدّرس التّراثيّ الفكريّ لدى العرب: فلسفةً ونقدًا ولغةً، من رؤيةٍ تشبه أن تكون تفصيليّة لظواهرَ غير لفظيّة تؤثّرُ في الدّلالة على المعنى تأثيرًا مهمّا، وذلك من قبيل: الإشارة باليد أو الرأس، وملامح الوجه والسِّحنَة، والتّثنّي والتّطويح، وحركات العيون، والتّمايُل أو الاعتدال، ورفع الصّوت وخفضه، وحدَّته أو لينه، وقوَّته أو ضعفه. وبما أنّ الباحثَ قد درسَ التّنغيمَ في تراث العربِ الفلسفيّ في بحثٍ سابقٍ (2002) ، فقد آثرَ التّركيزَ هنا على لُغة الجسد.

وقد اقتضت الضرورة أن يقدّم الباحثُ بين يدي بحثه بلمحة دالّة تُبينُ عن موقع الدّلالة غير اللفظيّة في الفكر اللسانيّ الغربيّ الحديث؛ وذلك لكشف أهمّيّة ما بلغه التراث العربيّ من نضج في هذه المسألة.

ومن المهمّ التنبُّه هنا على تركيز الدّرس التّراثيّ العربيّ على انسجام هذه الدّلالات غير اللفظيّة مع الأفكار والمضامين والانفعالات النفسيّة لدى المتكلّم، وطاقاتها التّعبيريّة المؤثّرة في تحقيق انفعالاتٍ نفسيّة لدى المتلقّين، وتمكين المعاني والأفكار والأخلاقِ المقصودة في نفوسهم، وتقريرِ صورةٍ ما للمتكلّم في أذهانهم فضلاً عن تجسيد صدقيّته عندهم، وهو ما يحقّق الغايةَ المنشودة: تأثير الشِّعر في متلقّيه، وإقناع الخطابة لسامعيها.

Body Language in The Arabic Heritage

Abstract:

The researcher tries to uncover that Arabic heritage, especially philosophers and some linguists and critics, interestingly studied a field which was thought not to be dealt with in Arabic heritage, that is, the field of ultra- segmental semantics. The researcher states that the Arabic critical and philosophical vision was so close to deal in details with the phenomena of non- verbal communication affecting the significance of an important impact on the meaning, which is known as the Body Language, such as the movements of the hand and head, facial expressions, staggering and overstretching the words, movements of the eyes, and raising and reducing the tone of voice.

It necessary to write about the definition and the importance of Ultra-Segmental Semantics in the modern Linguistics, so that it may provide a reasonable image of what the Arabic heritage achieved in this field. Arabic heritage both critical and philosophical focused on the coherence of these markers with the ideas, content, psychology of the speaker, expressive potentials in evolving emotions of the recipients, empowerment of meanings, ethics created in them, self- image of the speaker, and the embodiment of credibility of these elements. These factors influence the impact of poetry on the recipients, and the listener's acceptance of the discourse.

مقدّمة:

بذل المفكّرون اللغويّون العرب عامّة، وخاصّة النقّاد والبلاغيين منهم، جهودًا متميّزة في بيان أهميّة الوظيفة التّداوليّة للغة والكلام. وكان انشغالُهم بقضيّة ثنائيّة اللفظ والمعنى، وميلُ بعضهم إلى ترجيح كفّة اللفظ على المعنى، وميلُ آخرين إلى الموازنة بينهما بجعل المعنى كامنًا بالقوّة يجلّيه اللفظُ ويحقّقه بالفعل، وجُنوحُ غيرهم إلى قصر الفضل على المعنى، محاولات مُضنيةً كشفت عن خلافاتٍ في الفكر عميقة، لكنّ ما استقرّ من أنّ الصّياغةَ اللفظيّة معبِّرةٌ عن معنىً فيها لا خارجها، وجّه الأنظارَ إلى الاهتمام بالقوالب اللغويّة التي تحقّق الأغراض، وتكشف عن المعاني[1]. وقد رأى المسدّي أنّ البَنيةَ فوق المقطعيّة تمثّلُ تمفصُلاً مستقلاً بذاته في الفكر اللغويّ العربيّ المعنيّ بالدّلالة، وجعلها أساسًا من أسس التعبير عن المعنى وفهمه بقوله[2]: "المعنى الذي هو حاصلُ بنى التركيب يأتي في توزيع منازل الألفاظ أوّلاً، وفي العلامات التي تحملها تلك الألفاظُ عند توزيعها ثانيًا. فكأنّ النّسقَ النّحويّ في اللغة الإعرابيّة هو قبل كلّ شيءٍ نسَقٌ مقطعيّ، ثم هو مع ذلكَ نسقٌ واقعٌ في مستوى ما فوقَ المقطعيّ؛ ذاكَ الذي تندرجُ فيه النّبرةُ والنَّغَم، والامتدادُ الإيقاعيّ للكلام".

وتُجلّي الدّراسةُ أنّ الشَّريحةَ التي عُنيت عنايةً خاصّةً بحقل الدلالات غير المقطعيَّة تجسَّدت في بعض النقّاد والفلاسفة أكثر من غيرهم، إلاّ من اتّصل بهم من سواهُم كابن جنّي مثلاً. وقد يكونُ لهذا ما يسوّغُه على مستوى النّظر؛ فبعض النقّاد والفلاسفةُ اتّصلوا بالتراث اليونانيّ وترجموه وأعادُوا صياغة كثير منه، بل إنّهم أضافوا إليه إضافاتٍ مهمّة ليس هذا مجال البحث فيها؛ هذا فضلاً عن أنّ الفلسفةَ التي ارتكزت على الأقاويل بصُنوفها المعدودة ركّزت جلّ اهتمامها على تحقيق: التأثير في الأقاويل الشّعريّة، والإقناع في الأقاويل الخطبيّة، وهي أشكالٌ كلاميّة شفويّة، وكان هذانِ مناطًا أصيلاً في الفكر النّقديّ العربيّ بما يؤولانِ في الغايةِ إلى محاولةِ تفهُّمِ الإعجاز.

لقد ركّز أكثرُ اللغويّين، وخاصّةً النّحويّين من أعلام التراث العربيّ، في درسِهم على استقامة الكلام وفق القواعد التي أصّلوها بعد استقراء وقياس، وقصروا الدّلالة على المعنى في الكلام نفسه[3]. ودرجَ الفلاسفةُ على التّمييز بين القول والنُّطق من جهة، والتّصويت من جهة أخرى، وذلك بحسب تقطُّع الكلام على حروف مؤلّفة ودلالته على معنى يُعرَف. ولعلّ الفارابي كانَ من السبّاقين إلى هذا التّمييز الذي أبرزَ العلاقةَ بين التّركيب اللفظيّ

وما يُصاحبُه من تصويتات انفعاليّة، وأثر تلك المصاحبة في بيان المعنى[4]. وميّز إخوانُ الصّفا[5]بينَ أصواتِ لغات النّاس رادِّينَ تمايُزَها إلى تنوّع البيئات والأغذية والهواء[6]. ولعلّ ما تقدّم يؤكّده الفارابي، بل إنّه يؤكّد تمايُز أهل البيئات المختلفة في قدراتهم النّطقية وفي مخارج أصواتهم، ولعلّه يقدّم تفسيرا جيّدا لتقارب أهل اللغات المتقاربة في أصواتها ومخارج حروفها، مُعيدًا ذلك كلّه إلى عوامل فسيولوجيّة تشريحية (الخِلْقَة) وتقارب البيئات[7].

لكنّ إخوان الصّفا ميّزوا بين الأصواتِ والمنطق من حيثُ إنّ الأصواتَ أعمُّ من المنطق الذي هو مقصورٌ على اللغة الطّبيعيّة الإنسانيَّة؛ فالتّصويتاتُ التي يستخدمُها الإنسانُ للدّلالة على بعض ما في نفسه من انفعالات أو حاجات –عندَهم– هي أدخَلُ في باب الأصوات المفهومة ممّا يدلّ على معنى، وإن لم تكن قابلةً لتقطيعها بالحروف. هكذا تكونُ تلك التّصويتاتُ أقربَ إلى التّنغيم وبعض الصّيغ الصّوتية الدّالّة؛ أي إنّها غيرُ مقطعيّة بمصطلح هذه الدّراسة[8]. بل إنّ هَذا التّوافق يبدو عجيبا بين الفلاسفة من جهة، وبعض النّحاة من جهة أخرى، لكنّ العجب يزول حين العلم بأنّ كليهما يصدرُ عن المنطق. والتّركيزُ عند الطّرفين على ما تقدّم صحيح، غير أنّ الفلاسفةَ صبّوا اهتمامهم على آليّات توصيل المعنى، أو آليّاتِ دلالة الكلام عليه بكلّ ما فيه: الألفاظ ودلالتها على المعنى لدى المتكلّم، وبلوغها السّامع وإيجادها المعنى في نفسه.

الدلالة غير اللفظيّة في الفكر اللسانيّ الحديث:

وقد تصاعدَ الاهتمامُ البحثيّ بهذه اللغة غير اللفظيّة في العقود الأربعة الأخيرة، فانضمَّ لدراستها باحثُونَ من حقولٍ متعدّدة مثل: علم النّفس، والأنثروبولوجيا، واللسانيّات، وأولى هؤلاء عنايةً خاصَّةً بجوانبَ من السّلوك البشريّ المتعلّق بقدرات الإنسان على التّواصل. وقد درجَ الباحثونَ في ما مضى على النّظر في التّواصل الإنسانيّ باعتباره قائمًا على اللغة اللفظيّة (المقطعيَّة) ، ولعلّ من المُجدي النّظرَ في هذه اللغة غير اللفظيَّة (فوق المقطعيَّة) ؛ لأنّها تؤثّر تأثيرًا مباشرًا في تحقيق التّواصل والتّفاهُم يكادُ يُوازي في أهميّته تأثيرَ اللغة اللفظيّة. وتتأتّى أهمّيتُها من أنّ تأثيرَها ينبعُ من قدرتها على إبراز المشاعر وتحديد المواقف في سياق الكلام؛ أي إنّها إمّا أن تدعَمَ التّواصُلَ اللغويّ وإمّا أن تُناقضَهُ، ومن هنا فهي جديرةٌ بالتنبُّه والتّطوير[9].

وما تقدّم يؤكّد أهمّية التّواصل غير المقطَعيّ، ولو أنّ المقياس المتّبعَ في تحديد أهمّيّة نوع التّواصل كان كمّيًّا حسبُ، لبرزَت أهمّية هذا النّمط من التّواصل بصورة جليّة. وفي هذا السّياق يؤطّر (هُولْ) عشرةَ أنواع مستقلّة من النشاط الإنسانيّ أطلق عليها "النّظم الأوّليّة

للرّسالة"، وتمثّل اللغة واحدًا منها حسبُ[10]. في حين يناقش (رُوشْ وَكِيزْ) سبعة نُظم مختلفة لتحقيق التّواصل هي: المظهر الشّخصيّ واللباس، والحركات الجسديّة المقصودة، والنشاطُ العشوائيّ، وآثار النّشاط، والأصواتُ المنطوقة، والكلماتُ المَقُولة، والكلماتُ المكتوبة[11]. ولعلّنا نلحظُ هنا أنّ نظامَينِ من هذه النُّظُم السّبعة لها علاقةٌ بالألفاظ.

وعلى الرُّغم من هذا الفصلِ الدّراسيّ بين نمَطَي التّواصُل: اللفظيّ، وغير اللفظيّ، فإنّهما ينبغي أن يُقدَّما بوصفِهما وحدةً واحدةً متكاملةً غيرَ مستقلّ أحدُهما عن الآخر. وقد نظرَ (بِيرْدْوسِل) في التّواصل اللفظيّ ونظيره القائم على حركات الجسد، بوصفهما بنيةً تحتيَّة أساسيَّةً لنُظم التّواصل، وبهما متعالقَين معًا، فضلاً عن تعالقهما مع نُظم أخرى مشابهة من طرائق التّواصل الحسّيّة، يمكنُ بلوغُ نظام تواصليّ متكامل[12]. ويؤكّد (آرْجَايْلْ) هذه الرؤية التكاملية بقوله[13]: "من النتائج المهمّة في حقل التّواصل الاجتماعيّ الطّرقُ التي يدعمُ فيها التّواصل غير اللفظيّ نظيرَه اللفظيّ"[14]. وقد بدأ التنبُّه على ضرورة النّظر في التّواصل اللفظيّ ونظيره غير اللفظيّ بوصفهما متعالقين متكاملين في وحدة واحدة يأخذ منحى جدّيًا منذ عقود، ويبدو أنّ هذا المنحى آخذٌ في التّصاعُد، وفي هذا الإطار تأتي دراسات (هارِيسُونْ)[15]، ومتابعات (بُوهْلَرْ وَرِيتْشْمُونْدْ)، الذين وضعُوا الأطر العامّة لتحليل التّواصل اللفظيّ وغير اللفظيّ بين شخصين[16]. هذا في حين يسعى (رِيسْ وويتْمَانْ) إلى عَزْل نمطَي التّواصل (اللفظيّ وغير اللفظيّ) بعضهما عن بعض[17]، ويسعى (إِكْسْلاَيْنْ) للتّركيز على سلوك العَين خاصّة، ولربطه بأنواع التّواصل اللفظيّ المتعدّدة[18].

ويعتقد (بِيرْدْوسِلْ) أنّ نظام حركة الجسد مُشابهٌ ومقترنٌ باللغة المنطوقة، ورأى أنّ حركات الجسد يمكنُ النّظر فيها بما يوازي النّظام اللغويّ، فهي تشتمل على "حَرَكِيمَات Kinemes" و"مُورْفِيمَات حركيّة Kinemorphs" يمكن أن تشكّل بنىً نحويّة من مستوى أعلى؛ وهذه الوحدات الحركيَّة تُناظرُ في اللغة: الفونيمات، والمورفيمات، والوحدات النّحويّة الأخرى التي نستعملها لتحليل اللغة المنطوقة. بل إنّ (بيردوسل) ذهب أبعدَ من ذلك حين أكّد أنّ لغويًا خبيرًا في الحركات الجسديّة يمكنُه تحديد حركات متكلّم وملامح وجهه بالاستماع إلى حديثه حسبُ[19].

ومن الجدير بالذّكر أنّ الدّلالات غير اللفظيّة دخلت صُلبَ الدّرس اللسانيّ منذ طرح سوسيور ثنائيّته الشّهيرة (اللغة والكلام)، وهي بهذا أدخلُ في باب الكلام منها في اللغة. وهو ما أكّده الباحثون بتعريفهم للسيميولوجيا بأنّها وُلِدت بدءا من تفريق (سُوسْيُور) بين اللغة والكلام، جاعلينَ موضوعها دراسة العلامات في كنف المجتمع[20]، وقد تابعتهُ في هذا (جُولْيَا كْرِيسْتِيفَا) التي جعلت حقل السيميولوجيا محصورًا في دارسة الأنظمة الشّفويّة وغير الشفويّة من حيثُ كنهُها وطبيعتُها، رغبةً في كشف قوانينها المادّيّة والنّفسيّة التي

تحكُمها، وتُتيحُ لها اندغامَها في التّركيب[21]. وقد نظر الدرس اللسانيّ الحديث في الدلالات غير اللفظيّة ضمن علم العلامات (السّيميولوجيا) التي تعرَّف بأنّها العلم العامّ الذي يدرس كلّ أنساق العلامات التي بفضلها يتحقّق التّواصل بين النّاس، سواء كانت هذه العلاماتُ لسانيّة أو غير لسانيّة، وهو ما استقرّ عليه تعريف السيميولوجيا بأنّها العلمُ الذي يبحث في أنظمة العلامات أيّا كان مصدرُها: لغويّا، أم سَنَنِيًّا، أم مؤشِّريًّا[22].

كان التركيز عندَ (سوسيور) محصورًا في العلامات اللسانيّة بجانبيها اللغويّ والكلاميّ، لأنّ اللسانَ في رؤيته نسقٌ من العلامات المعبّرة عن الأفكار، ولهذا فإنّه تمكنُ مقارنتُه بالكتابة والحروف الأبجديّة الخاصّة بالصُّمّ والبُكم، ويمكن كذلك مقارنتُه بأنظمة الطّقوس الرّمزيّة كالشّعائر والعادت والتقاليد، فضلاً عن الإشارات التي يتعارفُها أصحابُ المهن أو الفئات الاجتماعيّة، مع بقاء اللسان وفق رؤيته أهمّ هذه الأنساق جميعها[23]. غير أنّ اللغويّين من بعدِه نظروا في العلامات بوحي من اهتمام السيميولوجيا بدراسة الأنساق الدلاليّة عامّة؛ أي مجموعة العلامات التي تشكّل شبكة من علاقات الانسجام والاختلاف لتؤدّي وظائفها الدّلاليّة[24].

ولعلّ تقسيم (مِيتْزْ) ، و (بِرْنَارْدْ تُوسَّان) من بعدِه، السّيميولوجيا وعلاماتها إلى لسانيّة وغير لسانيّة يجلّي منزلة العلامات (الدّلالات) غير اللفظيّة في النّظريّة اللسانيّة الحديثة، بخاصّة السيميولوجيا؛ فالعلاماتُ اللسانيّة هنا مقصورةٌ على الألفاظ أي على الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف. أمّا العلامات غير اللسانيّة فهي التي تشملُ كلَّ ما سوى الحروف والألفاظ والعلامات الإعرابيّة، ويمكنُ قسمتُها إلى علامات عُضويّة صادرة عن جسد الإنسان مثل: حركة الجسم، وأوضاع الجسد، والعلامات الشّميّة والسّمعيّة والذّوقيّة، وأخرى غير عضويّة، وهي كالملابس والموسيقى والألوان وغيرها[25].

لُغةُ الجسد في التّراث العربيّ[26]:

يُؤطَّرُ الجسدُ في الثقافة العربيَّة الإسلاميّة في إطارِ طاقته التّعبيريّة، فالإنسانُ في العالم حُضورٌ جسديّ، لا يُعرَفُ إلاَّ بجسدِه، وغيابُه جسديًّا يعني فناءَه. وهكذا، فإنّ الوجودَ الإنسانيَّ رهنٌ بتعبيرِ الإنسانِ عن وجودِه إمّا بجسدِه الصّامت، مثل ملامحِ وجهِه وتلوُّنِ سحنَته وظُهورِ أماراتِ الحزنِ والفرحِ والغضبِ والحبِّ والكراهية، أو بحركاتِ جسدِه وإيماءاتِه وإشاراتِه، وإمّا بنُطقِه وكلامِه. وفي كلّ هذه الأحوالِ يعبّرُ الإنسانُ بجسدِه عن وجودِه الاجتماعيّ؛ أي إنّ كلَّ جسَدٍ هو منطوقُه في غاية النّهاية[27].

والجسدُ ليس كتلةً صمّاءَ جامدةً، إنّه كيانٌ متحرّك يمتلكُ خطابَه الخاصَّ الإيمائيّ الذي ينمُّ على علاماتٍ وإشاراتٍ كثيرةٍ يحتاجُ فهمُها إلى تفكيكٍ وتحليلٍ ومقارنةٍ وقراءةٍ

عميقة بُغيةَ إنتاجِ الدّلالاتِ المقصودةِ الإراديَّة التي يُرادُ لها أن تبلُغَنا، وتلكَ العفويَّة التي تصدرُ من فاعلها بدونِ قصدٍ أو وعيٍ منهُ لما قد تدلُّ عليه. وهي علاماتٌ وإيماءاتٌ وملامحُ لها منطقُها الخاصُّ وقوانينُها وأسرارُها. والجسدُ هو المنبعُ الذي تصدرُ عنهُ الأفعالُ منظّمةً أو عفويّةً، لكنّه يجسّدُ هُويّتَنا الذّاتيّة مناطَ إدراكنا وتحديدِ مواقفنا من أنفسنا ومن الكونِ وموجوداته، وهكذا يمكنُ النّظرُ إليه بوصفه حركةً كلّيّةً للذّاتِ في الوجودِ تمتلكُ طاقةً هائلةً للتّعبيرِ بكلّ حركةٍ أو سكنةٍ، أو ملمحٍ وتلوُّنٍ، منه وفيه[28].

يمتلك المتكلّمُ وسائلَ متعدّدةً للتعبيرِ عن مقاصده وأغراضه، وإذا كانت اللغةُ مهتمّةً بالتركيبِ اللفظيِّ للأصواتِ بائتلافها الدّالِّ على الدّلالاتِ اللغويّة التي يصطلحُ الناسُ عليها، فإنّ الإنسانَ يمتلكُ وسائلَ أخرى غيرَ لفظيّة، أو غيرَ لغويّة، تؤدّي وظيفة التّواصل بصورة عامّة، ولعلّها أسبقُ من وسائط التعبيرِ اللفظيّة أو اللغويّة التركيبيّة. وتنقسم هذه الوسائلُ غيرُ اللفظيّة إلى أنظمةٍ دلاليّةٍ عضويّة تتّخذُ من "جسمِ الإنسانِ علاماتٍ؛ لأنّ الإنسانَ يستخدمُ أعضاءَ جسمه –بل جسمَه كلَّه– في التّواصلِ مع الآخرين؛ إنّه يتكلّم بجسمه كما يتكلّمُ بلسانه. وتحملُ حركاتُه وإشاراتُه دلالاتٍ" يمكنُ أن تكونَ مفهومةً مثل كلماتِ اللغة[29].

وقد ذهب بعضهم إلى تمييزِ لُغةِ جسدٍ عن لُغةِ جسدٍ أُخرى، وفقًا للانتماءِ إلى منظومة ثقافيّة محدّدة، فقالَ إنّ "لغة الجسم الإسلاميّة تختلفُ في المقدّماتِ والنّتائج عن لغة الجسم الغربيّة، مع أنّ الوجه هو الوجهُ، والعينَ هي العينُ، والفمَ هو الفمُ، والشّفاهَ هي الشّفاهُ، واليدَ هي اليدُ، والقدمَ هي القدمُ من حيثُ وجودُ عواملِ تكوينٍ مشتركة بينها لدى كلّ بني البشر، ولكنّ مزيدًا من التّأمّل يوصلُنا إلى حقيقة أنّه لا تُوجَد بصمةٌ تُطابقُ بصمةً أُخرى، ولا تُوجَد بسمةٌ تطابقُ بسمةً أُخرى، ولا تُوجد نظرةٌ تطابقُ نظرةً أخرى حتّى لدى الإنسانِ الواحد، وأنّ قاعدةَ هذه النّظرة أو البسمة أو الحركة أو الكلمة هي نفسُ تلكَ، هي قاعدةٌ لا مقامَ لها في علمِ التّواصل الحديث"[30].

وإذا كانت الدّلالاتُ اللغويّةُ غيرَ محدَّدة المعنى تمامًا، مع أنّها وضعيَّةٌ أو عرفيّةٌ أو شرعيّةٌ في قسمتها الأصوليَّة، وتؤول إلى أنّها وضعيَّة اصطلاحيَّةٌ في غايةِ النّهاية، فكيفَ الأمرُ بإسماءاتِ الجسدِ وحركاته وإشاراته، وهي في أكثرها ليسَت ممّا اصطُلِحَ عليه، بل لعلّها تختلفُ اختلافًا بيِّنًا بينَ بيئة وأُخرى، وعصر وآخر، وثقافة وأُخرى؟ إنّ لغة الجسدِ لغةٌ قد تكونُ معسولةً جدًّا، وهي تتميّز بقدر عالٍ من الغُموضِ والازدواجيّة، وفيها إمكانيّاتٌ هائلةٌ للتّضليل، و"قد تصلُ الرّسالةُ مغلوطةً إلى الطّرف الآخر فيتّخذ قراراتٍ خاطئةً بناءً على ما بلغَه من إشارات، فليسَ هناكَ تعريفاتٌ جامعةٌ مانعةٌ بهذا الشّأن، ولكنّ الجيّد في الأمرِ، أنّه يمكنُ تعلُّمُ إرسالِ واستقبالِ بعضِ الحركاتِ الإيجابيَّةِ حسبَ مُعطياتِ الموروثِ

الثقافيّ والسّلوكيّ السّائد في بيئة ما"[31]. وهذا صحيحٌ إلى قدر كبير؛ ذلكَ لأنّ هذه اللغة تُشبهُ من هذا الجانب دلالات الرّموز والألوان والأشكال في الثّقافات المتعدّدة المتنوّعة، وهي –لا شكَّ– متنوِّعةٌ قد تبلُغ درجةَ التّناقُض أحيانًا.

ورأى بعض الباحثينَ أنّ الرّسالةَ التي يودّ الإنسانُ تبليغَها لغيره ينقسمُ تأثيرُها، وتتوزّع فحواها في ثلاثة أقسام أساسيّة هي: ما يخرجُ من المجرى الصّائت ونسبتُه 7%، وما يطرأ على هذا المجرى من تنغيم ونبر وتلوّنات وتداخُلات صوتيّة ونسبتُه 18%، وتبقى النّسبةُ الكُبرى البالغةُ 55% لما يخرجُ من المجرى الصّامت للرّسالة. ويرى بعضُهم في شأن توزيع هذه الأقسام الثّلاثة رأيًا قريبًا؛ فنسبةُ الكلام في المحادثة المباشرة تستغرقُ 35% من الرّسالة، أمّا النّسبةُ الكبرى فتتعيّنُ بالأداءاتِ المصاحبة للكلام نفسه، أي بالحركاتِ والإيماءاتِ والإشاراتِ، وتبلغُ نسبتُها من الرسالة 65%[32].

وقد عدّها بعضُ الباحثينَ في الأداءات الخارجية، أو اللغة الجانبية، مميِّزًا لها عن الأداءات الداخلية النابعة من القرائن الصوتية، والصرفية، والتركيبيّة النحوية، والمعجمية، والبيانية للكلمة أو التركيب (المقطعيَّة) . ورأى أنّها تنقسمُ قسمين، أولهما: الأداءات الصوتية، مثل: الوقفات، والتنغيم، والنبر، والتزمين، والإيقاع، والآخر: الأداءات غير الصوتية، مثل: السياق، والحركة الجسمية المصاحبة للكلام[33]. وجعلها ثلاثةَ أنماط: حركات فطريّةً تُولَدُ مع الإنسان وهي غيرُ إراديَّة كالضّحك، وحركات موروثةً تنتقلُ إلى الإنسانِ بحُكم الوراثة مثل حركة الرّأس للتّعبير عن الرّفض، وأُخرى مُكتسَبَةٌ يتعلّمُها الإنسانُ في مجتمعه وهي أكثر الحركاتِ التي يمارسُها الفردُ، وهي خاضعةٌ للتغير[34].

لغة الجسد ولغة الكلام:

إذا كانت لغة الكلام "قد ارتقت بالإنسان وجعلته سيدًا للكائنات الأرضية، فإنّ هذه اللغة لم تحلّ محلّ لغة الجسد، ولم تنحّها بعيدًا، فما زالت الإشارات تُستَعمَل استعمالاً واسعًا بمصاحبة لغة الكلام، بل بديلا عنه في بعض الأحيان"[35]؛ ذلكَ لأنّ اللغة تتركّز في جسم الإنسان الذي ينفعل كلّه بما يعبّر عنه. إنّ الإنسان لا يتكلّم فقط بلسانه وأعضاء النّطق الأخرى، ولكنّه يتكلّم بأعضاء جسمه أيضا؛ إنّه يومئ برأسه ويغمز بعينيه ويرمز بشفتيه ويشير بإصبعه ويهزّ منكبيه؛ إنّ هذه الإشارات المصاحبة للألفاظ المنطوقة تقوم بتأكيد دلالات هذه الألفاظ من ناحية، أو إكمال ما يعتورُها من نقص من ناحية ثانية؛ ومن هنا تتمثّل أهميّة لغة الإشارات الجسميّة في نقل الأفكار والمشاعر والآراء والعواطف[36]؛ و"إذا كانت اللغة المنطوقة قد تتوقّف على ألسنتنا لسبب أو آخر، فإنّ لغة الإشارات الجسميّة لغة مستمرّة متواصلة، لا تتوقّف عن التعبير... وإذا كانت اللغة المنطوقة يمكن أن نُخفي بها

مشاعرنا ونكذب على الآخرين، فإنّ لغة الإشارات الجسميّة تكشفُ دائمًا عمّا نُخفيه"[37].

وتقع دلالاتُ لغة الجسد في التراث العربيِّ في إطار الدّلالة غير اللفظيّة؛ فوجوه الدّلالة على ما ذكرَ الكَفويُّ في تلخيصه لموضوع الدّلالة قائمةٌ في صنفين: دلالة لفظيَّة، وغير لفظيَّة، وكلٌّ منهما إمّا أن تكونَ وضعيَّةً، أو عقليَّةً، أو طبيعيَّة. فالدّلالةُ اللفظيّةُ الوضعيَّةُ دلالةُ الألفاظ الموضوعة على مدلولاتها، والعقليَّةُ كدلالة اللفظ على وجود اللافظ، والطّبيعيَّةُ كدلالة (أخ) على الوجع. أمّا الدّلالةُ غيرُ اللفظيّة الوضعيَّةُ فدلالاتُ المطابقة والتّضمُّن والالتزام والنّصبة، والعقليَّةُ كدلالة المصنوعات على الصّانع، والطّبعيَّةُ كدلالة الحُمرة على الخَجَل، والصُّفرة على الوَجَل[38].

وقد نظرت الثقافة العربية الإسلاميّة للغة بوصفها وسيلةً أساسيّة للتعبير عمّا يجول في صدور الناس وعقولهم ومشاعرهم، فالوظيفة الأساسيّة للغة هي الوظيفة التواصليّة التي تحقّق التفاهُم بين النّاس. وبهدي من هذه النّظرة كانَت ذروة الفصاحة والبلاغة ماثلةً في تحقيق هذه الوظيفة. ولعلّ أوّل من تكلّم على ذلك الجاحظُ[39] الذي قال يوضِّح المقصودَ بالبيان: "والبيانُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لكَ قناعَ المعنى، وهتَكَ الحجابَ دونَ الضّمير، حتّى يُفضيَ السّامعُ إلى حقيقته، ويهجُمَ على محصوله كائنًا ما كانَ ذلكَ البيانُ، ومن أيِّ جنس كانَ الدّليلُ؛ لأنّ مَدارَ الأمر والغايةَ التي إليها يجري القائلُ والسّامعُ، إنّما هو الفهمُ والإفهامُ؛ فبأيِّ شيءٍ بلغتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى، فذلكَ هو البيانُ في ذلكَ الموضع"[40].

واختُلفَ في لُغة الجسد إيماءً وإشارةً وحركةً: أهيَ من الكلام، أم ليسَت منهُ؟ ونجدُ ابن هشام يُدخلُها في البيان الذي يُطلَقُ على الكلام في اللغة، وعدّ فيه الحدثَ الذي هو التكلُّمُ، وما في النَّفس ممّا يُعبَّرُ عنهُ باللفظ المفيد، وما تحصلُ به الفائدةُ سواءٌ كانَ باللفظ أو الخطّ أو الإشارة أو ما نطقَ به لسانُ الحال[41]. وكانَ ابن فارس قد أخرجَ لغة الجسد من الكلام بقوله[42]: "لأنّ الأبكمَ قد يدلُّ بإشارات وحركات على أكثرِ مُراده ثمّ لا يُسمَّى متكلّمًا"؛ غيرَ أنّ هذه الإشارات والحركات ليست ممّا يُصاحبُ الكلامَ أصلاً لأنّ صاحبَها غيرُ قادرٍ –في ذلكَ الحين– على سواها للإبانة عمّا يريدُ. وهو ما أكّده العسكريُّ معلِّقًا على عبارة العَتّابيّ: "كلُّ من أفهمكَ حاجتَه فهو بليغ" بقوله[43]: "ولو حُملَ هذا الكلامُ على ظاهره للزمَ أن يكون الأبكمُ بليغًا؛ ... لأنّ كلّ واحد لا يعدمُ أن يدلّ على غرضه بعُجمته أو لُكْنَته أو إيماءته أو إشارته". وقد عدَّ بعضُهم في الكلام "ما يُفهَمُ من حال الشّيءِ مجازًا"[44]. ويظهرُ الأمرُ أكثرَ في القول؛ فقد عدُّوا فيه مثل[45]: "فقالت له العينان سمعًا وطاعةً"، ومثل: "قالَ بيده: أهْوَى بها"، و"قالَ برأسه: أشارَ"، و"قالَ بثوبه: رفَعَه".

ونجدُ شيئًا من ذلكَ في تعليقِ ابن هشام الأنصاريّ على بيتي عمر بن أبي ربيعةَ[46]:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِها ... إشارةَ مَذْعُورٍ، ولَمْ تَتَكَلَّمِ

فأيْقَنْتُ أنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ: مَرْحَبًا، ... وأهلاً وسهلاً بالحَبيبِ المُتيَّمِ

بقوله[47]: "فإنّما نفى الكلامَ اللفظيَّ لا مُطلَقَ الكلام، ولو أرادَ بقوله (لم تتكلَّم) نفيَ غيرِ الكلام اللفظيِّ لانتقضَ بقولِه (فأيقنتُ أنّ الطّرفَ قد قَالَ مرحبًا) "؛ لأنّه أثبتَ للطَّرْفِ قولاً بعدَ أن نفى الكلامَ".

ومن ذلكَ ما نجدُه لدى عبد القاهر الجرجانيّ في ثنايا حديثِه عن الحالِ النّاطقةِ الدّالّة بأحوالِ النّفسِ وإيماءاتِ الجسدِ بأعضائه المتنوّعةِ على المُراد، ومنها أساريرُ الوجهِ التي تُخبرُ عمّا في الضّميرِ، وكلامُ العُيونِ بما في القلوبِ، "فتجدُ في الحالِ وصفًا هو شبيهٌ بالنُّطقِ من الإنسانِ، وذلكَ أنّ الحالَ تدلُّ على الأمر، ويكونُ فيها أماراتٌ يُعرَف بها الشّيء كما أنّ النّطقَ كذلك، وفي العينِ وصفٌ شبيهٌ بالكلام، وهو دلالتُها بالعلاماتِ التي تظهرُ فيها وفي نظرِها وخواصّ أوصافٍ يحدسُ بها على ما في القلوبِ من الإنكارِ والقبول"[48].

ويروي عبد القاهرِ عن رجلٍ أتى الجُمحيَّ يستشيرُه في شأنِ امرأةٍ يريدُ الزّواجَ منها، فسألهُ عن بعضِ أحوالِها فلم يفهم سؤالَه فقال[49]: "إنّي لأعرفُ في عينِ الرّجلِ إذا عرفَ، وأعرفُ فيها إذا أنكرَ، وأعرفُ إذا لم يعرفْ ولم يُنكر. أمّا إذا عرفَ فإنّها تَخاوَصُ، وإذا لم يعرفْ ولم يُنكر فإنّها تسجُو، وإذا أنكرَ فإنّها تجحَظُ". وأضافَ عبدُ القاهرِ موضّحًا أنّ أمرَ لغةِ العيونِ كانَ معروفًا في عصره[50]: "وأمرُ العينِ أظهرُ من أن تحتاجَ فيه إلى دليل". والنّاظرُ في عباراتِ الجُمحيِّ التي نقلَها عبدُ القاهرِ، وتعقيبِ الجرجانيِّ بعدَها، يجدُ أنّ حركاتِ العيونِ وإيماءاتِها كانت مقروءةً في ذلكَ الحينِ، وشبهَ مستقرّةٍ لدى كثيرٍ من النّاسِ، وإذا كانَ التّراثُ العربيُّ الذي بلَغَنا لم يسجّلْ تسجيلاً توثيقيًّا مُدعَّمًا بالرُّسوماتِ والشُّروحِ التّفصيليّةِ لغةَ الجسدِ وأوضاعَها كما نجدُ اليومَ في بعضِ المؤلّفاتِ عنها، فليسَ ذلكَ قُصورًا؛ إنّما لعلّهُ انشغالٌ عن هذا الجانبِ بجوانبَ أُخرى أجدى في حينِها، وانصرافًا عن تدوينِ ما هو عامٌّ شائعٌ بينَ النّاسِ بدونِ حاجةٍ إلى تعليمِه وحفظِه بالتّصنيفِ والتّأليف.

لُغةُ الجسدِ أوّلاً:

ظنّ بعضُ الباحثينَ أنّ لغةَ الجسد "لُغةُ تواصُلٍ حديثة"، وأصابَ حينَ عرّفها بقوله إنّها "تعتمدُ على تعابيرِ الجسدِ ومُصطلحاته"، مشيرًا إلى أنّ علمَ لُغةِ الجسدِ علمٌ يدرسُ طُرقَ التّواصُلِ غيرِ اللفظيّ. وموضوعُ البحث في هذا العلم كامنٌ في لُغةِ التّخاطُبِ غيرِ اللفظيّ اللاشُعوريّ، في مُحاولةٍ للإحاطةِ بردودِ فعلِ الجسمِ عند التّواصُلِ مع الآخرينَ عن طريقِ

الحركات والإيماءات والملامح، باعتبار الحركات اللاشُعوريّة للجسد علامات مرئيَّةً لما نُخفيه من محفّزات ومشاعر[51]. وما من شكٍّ في أنَّ أصلَ اللغة أصلٌ شفاهيّ، وأنّ لغة الجسد اتّصلتْ بهذا الأصل، ورافقتهُ، وتطوَّرت معه عبر العصور.

ومسألةُ الدّلالة على ما في النّفس للتّواصل الإنسانيّ وتحقيق التفاهُم بين البشر بالإشارة أسبقُ في نظر الفلاسفة من العبارة اللغويّة القوليّة؛ وقد صرّح الفارابيّ بأسبقيّة الإشارة على القول واللفظ، ومنه يمكنُ استنتاجُ أنّ لغةَ الجسد والتَنغيمَ مثلاً كانا أسبقَ من المقاطع الصّوتية اللغويّة، وهو أمرٌ يكادُ يكونُ منطقيّا بدون الحاجة إلى إثبات حجّيّته. قال أبو نصر في سياق حديثه عن (حدوث حروف الأمّة وألفاظها)[52]: "وإذا احتاجَ أن يعرّف غيرَه ما في ضميره، أو مقصوده بضميره، استعمل الإشارةَ أوّلا في الدّلالة على ما كان يريد ممّن يلتمسُ تفهيمَه إذا كان من يلتمسُ تفهيمَه بحيثُ يُبصرُ إشارتَه، ثمّ استعمل بعدَ ذلكَ التّصويت، وأوّل التّصويتاتِ النِّداءُ، فإنّه بهذا ينتبهُ من يلتمس تفهيمَه أنّه هو المقصودُ بالتفهيم لا سواه".

وقد رأى ابن طفيل أنّ الإنسانَ إذا "احتاجَ أن يعرّفَ غيرَه ما في ضميره أو مقصودَه بضميره استعملَ الإشارةَ أوّلاً في الدّلالة على ما كانَ يريدُ إذا كان من يلتمسُ تفهيمَه بحيثُ يُبصرُ إشارتَه، ثمّ استعملَ بعدَ ذلكَ التَّصويتَ"[53] بحيثُ ينبّه المقصودَ بالتّفهيم أنّه هو المُرادُ، على أنّ هذا وحدَه لا يكفي، ولهذا قد يستعينُ بأعضاء أُخرى من جسده ليُبلِغَ رسالتَه، وفيها اليدُ وذلكَ حينَما يريدُ الدّلالةَ "على ما في ضميره بالإشارة إلى المحسوسات، ثمّ من بعد ذلكَ يستعملُ تصويتاتٍ مختلفةً يدلُّ بواحدٍ واحدٍ منها على واحدٍ واحدٍ ممّا يدلُّ عليه بالإشارة إليه وإلى محسوساته، فيجعل لكلّ مُشارٍ إليه محدودٍ تصويتًا ما محدَّدًا"[54].

وهو ما يؤكّده عالم النّفس مورجان من أنّ الإشارات جاءت أقدم من الأصوات، ثمّ جاءت الأصواتُ مُعاونةً لها وللإيماءات والحركات، "ثمّ أخذت تكتسبُ بالتّدريج معنىً مُتعارَفًا عليه بحيث أصبح لها السيطرةُ والسّيادةُ والغلَبةُ على الإشارات، أو على الأقلّ أصبحت جزءًا هامًّا منها"[55]. بل لعلّنا نميلُ إلى أنّ كثيرًا من تشكّلات الأصوات اللغويّة النّابعة من حركات أعضاء جهاز النُّطق المرئيَّة: الفكّين، والشّفتين، واللسان، فضلاً عن أعضاء جهاز النُّطق الأُخرى غير المرئيَّة، إنّما هي امتدادٌ لدلالات غير مقطعيّة تعاضدَ فيها الصّوتُ ولغةُ الجسد، وتطويرٌ لها. ويمكنُ الإشارةُ هنا إلى صوت "الواو" في العربيَّة وما يقتضيه من تشكّل للشّفتين، وعلاقته الوثيقة بأصوات تعبّرُ عن الألم، أو تحذِّرُ ممّا يُؤلمُ، في المحكيّات. لكنَّ هذا البحثَ يحتاجُ إلى دراسةٍ حفريَّةٍ في علمي الأصوات والمعجم استكشافًا لِلُقَىً لُغويّةٍ دالّةٍ على ذلكَ الاتّصال.

الإشارةُ والإيماء والهيئة:

دلّ الجاحظُ على قريبٍ ممّا نعهدُه في اللسانيّات الحديثة اليوم حينَما نظر في لا نهائيّة المعاني قُبالةَ نهائيّة الألفاظ ومحدوديَّتها، غير أنّ اللسانيّات التّوليديّة تقول اليومَ بلانهائيّة التَّركيبات التي يمكنُ إنتاجُها من هذه الألفاظ المحدودة[56]. ولعلّ هذه الفكرةَ هي نفسُها التي ظهرت في كلام القاضي عبد الجبّار حينَما تكلّم على إمكانيّة تركيبات لغويّة لانهائيّة باللغة، لكنّ الأظهر منها في الدّلالة هو حديثُ بعض أعلام النّقد والبلاغة العرب عن إمكانيّة التّعبير عن المعنى نفسه بعبارات متعدّدة، وهو ما يؤكّد رؤية الجاحظ في أنّ العبرةَ بالصّياغة. قال[57]: "ثمّ اعلم –حفظَك الله– أنّ حُكم المعاني خِلافُ حُكم الألفاظ؛ لأنّ المعانيَ مبسوطَةٌ إلى غيرِ غاية، وممتدَّةٌ إلى غير نهاية، وأسماءُ المَعاني مقصورةٌ معدودة، ومُحصَّلَةٌ محدودة".

وتابعَ الجاحظُ كلامَه ليحدّد أصنافَ الدّلالات على المعاني. وتتعدّد سبُلُ التّعبير عن المعنى عنده وتتّسعُ لتشملَ كلَّ ما من شأنه أن يكونَ دالاً: باللغَة، أو بغيرِها، وقد حصرها في خمسة أصناف قائلاً: "وجميعُ أصناف الدّلالات على المعاني من لفظٍ وغيرِ لفظ، خمسةُ أشياء لا تنقُص ولا تزيد: أوّلها اللفظُ، ثمّ الإشارةُ، ثمّ العَقدُ، ثمّ الخطُّ، ثُمّ الحالُ التي تُسمَّى نِصْبَةً. والنِّصبةُ هي الحالُ الدّالّةُ التي تقومُ مقامَ تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلكَ الدّلالات. ولكلٍّ واحدٍ من هذه الخمسة صُورةٌ بائنةٌ من صُورة صاحبتِها، وحِلْيَةٌ مُخالفةٌ لحلية أُختِها؛ وهي التي تكشفُ لك عن أعيانِ المعاني في الجُمْلَة، ثمّ عن حقائقها في التّفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصِّها وعامِّها، وعن طبقاتِها في السّارِّ والضّارّ، وعمّا يكونُ منها لَغْوًا بَهْرَجا، وساقطًا مُطَّرَحا"[58].

وأمّا الإشارةُ ففيها جانبان: أوّلهما أنّنا نُعبِّر عن الأشياء بالإشارة إليها بدلاً من نُطق أسمائها الدّالّة عليها أحيانا، كأن يُشيرَ واحدُ النّاس إلى شَجَرة؛ وأحيانا نستخدمُ الإشارةَ لتشكيلِ صُورةِ الشّيءِ الذي نُريدُ التّعبير عنه حينَما يكونُ غائبًا، كأن يشيرَ واحدُ النّاس بيدَيْه إشاراتٍ تدلُّ على صفَة الطُّول، وإشاراتٍ أُخرى تدلُّ على السِّمَن، وإشارةً تدلُّ على اتِّساع العُيون، وأُخرى تدلُّ على الوَسامَة والقسامَة، ليدلَّ المتلقِّي المشاهد على أنّه يقصُدُ فُلانًا صاحبَه الذي يتّصفُ بما تقدّم من نُعوت؛ وأحيانا نستخدمُ الإشارةَ للدّلالة على فعلٍ من الأفعال، أو حالٍ من الأحوال... والآخَرُ الذي يقصُده الجاحظُ هنا، هُو هيئةُ الحال المصاحبة للكلام نفسه، وهي تماما ما تحدّث عنه الفلاسفةُ بمصطلحات: الأخذ بالوُجوه، والنِّفاقِ، والحِيَلِ الإعداديّة قديمًا (المُقنِعَات) ، وما يُعرفُ بلغة الجسد حديثًا.

وبعدَ حديثِه عن البيانِ باللفظِ الذي خُصِّص جزء كبير من الكتاب لأنواعه وأشراطه وطبقاته ومُعيقاته ودرجاته من الفصاحة والبيان، تكلّم الجاحظُ على الإشارة، وفصَّل في طرائقها ووظيفتها الدّلاليّة التي تُوازي اللفظَ، وقد تُصاحبُه فتؤكّد دلالتَه أو توضّحها (والإشارةُ واللفظُ شريكانِ...) ، وقد تُغني عنه أحيانا فتصبح بديلةً عنه لا سيّما في الحالات التي لا تهيِّئُ للنّاس أن يتواصلوا باللفظ اللغويّ (إذا تباعد الشّخصان) ، ولعلّ ما يُهمُّنا هُنا هو ما فصّل الجاحظُ القولَ فيه من تصاحُبِ الإشارةِ واللفظِ معا؛ وخاصّةً قولَه: "ونعمَ العَونُ هي له، ونِعمَ التّرجمانُ هي عنه"؛ ذلك لأنّ الإشارةَ المحضةَ الخاليةَ من مصاحبةِ اللفظ تُصبحُ وحدَها مستقلّة بالدّلالة، أمّا الإشارةُ المصاحبةُ للفظ فهي التي تحملُ دلالاتٍ تكشفُ تماما عن المعنى المقصود؛ أي إنّها تدلّ دلالةً فوقَ تركيبيّةً خارجةً عن حدودِ اللفظِ نفسه، كأنّما هي الدّلالاتُ الحافّةُ باللفظِ ممّا لا يُمكنُ فهمُ ما يُدَلُّ عليه بغيرِها.

قال الجاحظ: "أمّا الإشارةُ، فباليَد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمَنْكِب، إذا تباعدَ الشّخصان، وبالثّوب وبالسّيف. وقد يتهدّد رافعُ السّيفِ والسّوط، فيكونُ ذلكَ زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدًا وتحذيرًا. والإشارةُ واللفظُ شريكان، ونِعمَ العَونُ هي له، ونِعمَ التّرجمانُ هي عنه. وما أكثرَ ما تنوبُ عن اللفظ، وما تُغني عن الخطّ. وبعدُ، فهل تعدُو الإشارةُ أن تكون ذاتَ صُورةٍ مَعروفة، وحِلْيَة موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها؟ وفي الإشارة بالطّرْف والحاجبِ وغير ذلكَ من الجَوارح، مِرْفَقٌ كبير ومَعُونةٌ حاضرة، في أمور يستُرها بعضُ النّاس من بعض، ويُخْفُونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارةُ لم يتفاهَم النّاس مَعنى خاصِّ الخاصّ، ولَجَهِلوا هذا البابَ البَتَّةَ. ولولا أنّ تفسير هذه الكلمة يدخلُ في بابِ صِناعةِ الكَلام لفسَّرْتُها لكم، وقد قال الشّاعر في دلالات الإشارة:

أَشَارَتْ بطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِها ... إشارةَ مَذْعُورٍ، ولمْ تَتَكلَّمِ
فأيْقَنْتُ أنَّ الطّرْفَ قَدْ قالَ: مَرْحَبًا، ... وأهلاً وسهلاً بالحَبيبِ المُتيَّمِ

... وقال الآخرُ:

العَينُ تُبدِي الّذي في نَفْسِ صاحبِها ... مِنَ المَحَبَّةِ، أو بُغْضٍ إذا كانا
والعَيْنُ تَنْطُقُ والأفْواهُ صامتَةٌ ... حتّى تُري مِن ضَميرِ القَلبِ تِبْيانا

هذا، ومبلَغُ الإشارةِ أبعدُ من مَبْلَغ الصّوت»[59].

وإذا كانت الإيماءةُ للقريب الذي يمكنُ أن يلمَحها ويتفهَّمَ دلالتَها، فإنَّ هيئةَ الحالِ يمكنُ أن تدلَّ من مسافة أبعدَ قليلاً، أمّا الصَّوتُ فإنّهُ يبلُغُ مدىً أبعدَ منهما في الدّلالة ويُستَعمَلُ لمسافةٍ هي على قدرِ صوتِ المتكلِّمِ وسَمْعِ السّامع. وأمّا الإشارةُ فإنّها للمسافاتِ

قريبةً وبعيدةً، ويمكنُ أن تجاوزَ دلالتُها مسافاتٍ لا يمكنُ للإيماءةِ والهيئة والصّوتِ – في العصور القديمة– أن تبلُغَها؛ وليسَ أدلَّ على هذا من إشعالِ العربِ النّيرانَ في بواديها لتدلَّ الأضيافَ وضالِّي الطّريقِ من بعيد، ومن إشعالِ النّيرانِ في مواضعَ محدّدةٍ من رؤوس الجبالِ بالتّعاقُبِ للدّلالة على ضرورة التّهيُّؤ والاستعدادِ لعدُوٍّ مُقبلٍ أيّامَ الغزو الصّليبيِّ لبلاد الشّام ومصر، أو إخراجِ الدّخانِ الأبيضِ أو الأسودِ للإعلانِ عن النُّجحِ في انتخابِ (البابا) أو الفشلِ في ذلك في العصور الوسطى في أوروبا.

واضحٌ أنَّ العلاقةَ بينَ لغة الجسَد، ولغة الكلام، ولغة الإشارة ماثلةٌ بلا مِرَاء، وأنّ هذه اللغات تجتمعُ في أنّها تدلُّ على معانٍ يُرادُ تبلَيغُها وإنْ تكُن طرقُ التّعبيرِ مختلفةً. وجليٌّ أنّ التّراثَ العربيَّ كانَ متنبّهًا على ثلاثتها، وعلى العلاقة الجامعةِ بينَها، وعلى ترتُّبِ حاجةِ الإنسانِ الرّاغبِ في التّعبيرِ عن حاجتِه والدّلالة على غرضِه يلجأُ إليها وفقَ الظّروفِ المحيطةِ، وباعتبارِ المسافةِ بينَه وبينَ من يريدُ تبليغَه رسالتَه.

لغة الجسد والمشافهة:

إذا كانت بدايات جهود اللغويّين والنقّاد العرب قد انصبَّت على الشّكل الكلاميّ للغة بهيئاته المتنوّعة: قولاً وسَماعًا، مثل: إنشاد الأشعار، وإلقاء الخُطب، والتّواصل الحواريّ بالكلام، وأهملت الشّكل الخطِّيَّ للنّصوص اللغويّة: كتابةً وقراءةً، ردْحًا من الزّمن، فلأنّ تلك العصورَ انبنت على المشافَهة أكثر من التّواصُل الخطِّيّ. وقد ترتّبَ على هذه المقدّمات نتائجُ برزت في عنايةِ الفكر اللُغويّ العربيّ بتطوير القوالب الكلاميّة وآليّاتها في البدايات، ثمّ امتدّ هذا ليشمل تطوير القوالب الخطيّة وآليّاتها؛ فكان الاعتناءُ بالإنشاد وتقنيّات الخطابة أوّلا، ثمّ برزَ الاهتمامُ بضبطِ النّصوص من التصحيف والتحريف تاليًا.

وقد يقعُ في هذا السّياق أيضًا ما تقدّمه هذه الدّراسةُ من إيلاءِ الدّلالات غير المقطعيَّة أهميّة خاصّة في دلالة المتكلّمين على المعاني، لا سيّما لغة الجسد المصاحبة للكلام، والتّنغيم الصّوتيّ للكلام نفسه؛ فهو دالٌّ دلالةً واضحةً على عنايةٍ شديدة بأن يحقّق الكلامُ غاياته المرسومة: إفهاما، وإقناعا، وتأثيرا، في سامعيه. في حين أنّ آليّات تمثيل هذه الدّلالات غير المقطعيَّة في الشّكل الخطّيّ للغة بقي مُهمَلاً إلى حدّ كبير، فعلاماتُ الوقف والتّنغيم (الترقيم) لم تَرْقَ في العربيَّة المدوَّنة رُقِيَّها في ما دُلَّ به على العربيّة المنطوقة.

إنّ مُجملَ الكلام على لُغَة الجسد في هذا الإطار متّصلٌ تمامًا بالموقف اللغويّ الشّفاهيّ، وهو ما قصدَه المتقدّمون بكلامهم على المَقام ومُقتضى الحال؛ فالإشارةُ وصنُوف الحركات التي ذكرَها الجاحظُ، والهيئاتُ المصاحبةُ للكلام، كلُّها تنبعُ من المتكلِّم في أثناء أدائه الكلاميّ. ولعلّ غيابَ ما يدلُّ على الإشاراتِ والحركاتِ والهيئاتِ عن الموقفِ اللغويّ

الكتابيّ، وتأثيرَ ذلكَ في تضاؤُل نسبة الفهم والتّأثير والإقناع لدى المتلقِّي (القارئ) عنها لدى المتلقِّي (السّامع) ، يدلّ دلالةً واضحةً على أنّ تركيزَهم انصبَّ على الموقف اللغويّ الشّفاهيّ.

ويمكنُ أن يضمَّ المقامُ في هذه الحالة عناصرَ كثيرةً أُخرى مؤثِّرة غير لفظيّة، وفيها هيئةُ المتكلِّم في هندامه وحُسْن بزَّته أو رثاثة ثيابه، وصورته وبنيته الجسميَّة، ولون بشرته ودرجة صفائها، واكتمال خَلْقه، أو اختلال بعض أعضائه الظّاهرة، وفيها جُمهورُ الحاضرين ورُتَبُهم، ودرجاتُ ثقافتهم ووعيهم، وأعمارُهم وأجناسُهم وعددُهم، وإقبالُهم عليه أو إدبارُهم عنه، فضلاً عن توقيت كلامه وحالته النّفسيّة والبدنيّة، وكونه مُبادرًا أو مأمورًا أو مندوبًا للكلام، ومبتدئًا أو مُدافعًا لخَصم... إنّ ما تقدّم كلّه يحقِّق أثرًا بيِّنًا في الكلام، ويُعينُ على فهمه وتحقيق الأثر المطلوب منه، أو يلبِّسُهُ ويُغْمِضُه ويسيءُ إليه، ويُبعِدُه عن تحقيق البُغية المقصودة.

ولعلّ سمات الأداء الشّفهيّ الحركيَّةَ تظهرُ في أكثر المواقف الكلاميّة التّواصليَّة مُصاحبةً للنُّطق، ولكنّ هذا يحدثُ بصورة متفاوتة من متكلّم لآخرَ، وفق شخصيّته وباعتبار دلالات المنطوق من الوجهة الانفعاليَّة، وقد خصَّها بعضُهم بإلقاء الشِّعر لما يقتضي من حركات مُصاحبَة يؤدّي الجسدُ فيها بحركاته دورًا أساسيًّا في وصف عُمق الإحساس بالمعنى والموقف في أثناء إلقاء الشِّعر(60).

وتتعدّد الصُّورُ التي تحضرُ بها سماتُ الأداء الشّفهيّ الحركيّة "حركات الجسم" بوصفها مصاحبةً للكلام، فالكلامُ وسيلةٌ للتّعبير، وهو ليس الوسيلة الوحيدةَ التي يمتلكُها الإنسانُ ليعبّر عمّا يجولُ في خاطره، أو يريدُه، ومن تلكَ الوسائل الأُخرى التّعبيرُ بالإشارة كتحريك الرّأس واليدين والكتفين، والضّرب بالقدم على الأرض، والنّقر بالأصابع، ورفع السبّابة في الهواء بحزم أحيانًا؛ هذه الحركاتُ والإيماءاتُ كلُّها له دلالتُه التي ما نزالُ أحيانًا نكتفي بها بدون كلام لغويّ لفظيّ. ومن تلك الوسائل التّعبيرُ بملامح الوجه كمطّ الشّفتين تعبيرًا عن الاشمئزاز والشُّموخ بالأنف للكبر، وإسبال العينين للتّواضُع أو الحياء والاحتشام، وهذا كلُّه يكونُ إراديًّا، وثَمّة أفعالٌ لا إراديّة تحدثُ وفقَ الظّروف التي يكونُ فيها الفردُ، مثل شحوب الوجه أو احمرار الوجنتين واحمرار العينين(61).

تكميل الدّلالة وتحقيقُها:

كلّما تحدّثنا مع غيرنا يُساند الجسدُ كلامَنا بكثير من الحركات المعبّرة، وهي تتراوحُ بين حركات العُيون، والأيدي، وتغيّر ملامح الوجه، وتنوّعات في الصّوت، وكلُّها يُصاحبُ الكلامَ؛ فإذا كانَت هذه الحركاتُ والتّنويعاتُ منسجمةً مع الكلام تأيَّدت دلالةُ الكلام على

المعنى، أمّا إذا خالفَت الكلامَ وتناقضَت معَه، فإنّ الأمرَ يصبحُ قريبًا من التّهريج أحيانًا، وقد يشتّتُ ذهنَ المتلقّي عن إدراك المعنى أحيانا أخرى. وأكثرُ النّاس لا يدركُونَ طبيعةَ هذه اللغة غيرِ اللفظيّة التي يستعملونَها في سياقِ كلامِهم مع الآخرين؛ فكأنّها لُغةٌ تصدرُ بلا وعيٍ منهم(62).

إنّ فهمَ الإيماءاتِ والحركاتِ المصاحبة للكلام عمليّة صعبةٌ ومعقّدةٌ إذا فُصلَت مجموعة العناصر عن سياقاتِها، في حين أنّ فهمَها يصبحُ يسيرًا حينَ نجمعُها كلسلسلة متّصلة متكاملة؛ فكلّ "إيماءة تشبهُ الكلمة الواحدة في اللغة، وكي نتمكّن من فهم الكلمة في لغة ما علينا وضعُ الكلماتِ في مجموعاتٍ (جُمل) تعبّر عن فكرة كاملة(63). فإذا تحقّق انسجامٌ بين الإشاراتِ والهيئاتِ والحركاتِ المصاحبة للكلام والكلام نفسه، ثمّ كانت العناصرُ المتقدّمةُ ممّا يتّفقُ وهذا الانسجام، تحقّق الفهمُ والتّأثيرُ والإقناع، وإلاّ فقدَ الكلامُ والمتكلّم كلاهُما أيّ قيمة تُذكَر. ويمكنُ القول إنّ شطرًا لا بأسَ به من قولتِهم المأثورة في تعريفِ البلاغة بأنّها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" كامنٌ في ما تقدَّم.

وثمّة إشاراتٌ واضحةٌ جليّة في التّراث العربيّ إلى جَمالِ توافُق لغة الجسد والحركاتِ والهيئاتِ مع الكلام المقول، وتأثير هذه كلّها في إحداث أثرٍ خارجٍ عن حُدودِ اللفظ نفسه في السامعين، ولعلّ الجاحظَ ذكرَ بعضَ عاداتِ خُطَباء العربِ المشهورين من استصحابِ أدواتٍ معهم تُعينُهم على ذلك؛ بل إنّ في كلامه تصريحًا بأنّ العربَ عرفوا هذا الضّربَ من لُغة الجسد ومن آثارِ الحركاتِ المصاحبة للكلام، فعرفوا منها ضروبًا تُناسبُ المواقفَ والمعاني والألفاظ والأغراض، وجعلوا كلّ حركة أو هيئة منها مصاحبةً للقول المناسب في الموقف المناسب، فالمغنّي "قد يوقّعُ بالقضيبِ على أوزان الأغاني، والمتكلّم قد يشيرُ برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، ففرّقوا ضُروبَ الحركاتِ على ضُروبِ الألفاظ وضُروبِ المعاني، ولو قُبِضَتْ يدُهُ ومُنِع حركةَ رأسه، لذهبَ ثُلُثا كلامه. وقال عبد الملك بن مروان: لو ألقيتُ الخيزُرانةَ من يدي لذهبَ شَطْرُ كلامي. وأرادَ مُعاويةُ سَحْبانَ وائل على الكلام، وكانَ قد اقتضبَهُ اقتضابًا، فلم ينطق حتّى أتَوهُ بمِخْصَرَة، فرَطَلَها بيده، فلم تُعْجِبْه حتّى أتوهُ بمِخْصَرةٍ من بيته"(64).

كما بيّن الجاحظُ علاقةَ الإشارة بالصّوت، وعلاقتَها بالكلام أيضا، وهو دقيق حدَّ الغاية في عبارته عن أثر الإشارة في الدّلالة وتوجيه المعنى، فهي لا تؤدّي هنا دورًا دلاليّا مستقلاّ، ولا منزلةَ لها وحدَها؛ إنّما تتمتّعُ بدلالة تكميليّة تمكّن المتكلّم من تحديد مقصُوده بالكلام، وتمكّن المتلقّي أيضا من الاستدلال على ذلك المقصود، وهو ما يدلّ عليه قوله: "وحُسنُ الإشارة باليَد والرّأس من تَمام حُسْنِ البيان باللسان". لكنّه يُضيفُ إلى الإشارة باليدِ والرأس هيئاتٍ وأحوالاً وأفعالاً أُخرى يتّخذُها المتكلّم أو يسلُكها ليقتدرَ على استحواذ

إصغاء المتلقّين، واجتلابِ اهتمامهم بما يقول، فضلاً عن تحقُّقه من إنهاء المعنى إلى قلوبهم في أحسن صورة؛ قال: "والصّوتُ هو آلةُ اللفظ، والجوهرُ الذي يقومُ به التّقطيع، وبه يُوجَد التّأليف. ولن تكون حركاتُ اللسانِ لفظًا ولا كلامًا موزونا ولا منثورًا إلاّ بظُهور الصّوت، ولا تكون الحُروفُ كَلامًا إلاّ بالتّقطيع والتّأليف. وحُسنُ الإشارةِ باليَد والرّأس من تَمام حُسْنِ البيانِ باللسان، مع الذي يكونُ معَ الإشارةِ من الدَّلِّ والشَّكْلِ، والتّقَتُّلِ والتّثنِّي، واستدعاء الشَّهْوة، وغير ذلكَ من الأمور"[65].

فالجاحظُ يعدِّد أنواع حركاتِ الجسم وإشاراته وقنواتِها في حقلِ التّواصُل الشّفهيّ، ويضيفُ إضافتينِ مهمّتينِ في هذا الحقل، تتمثّل الأولى في مقارنته بينَ مدى الصّوت ومدى الإشارة في مجال التّواصل الشّفهيّ، وإثباته أنّ مدى الإشارةِ أبعدُ من مدى الصّوت، وتتمثّل الإضافةُ الأُخرى في وصفه بلاغةَ الإشارة مُساويًا "بين حُسنِ الإشارةِ باليدِ والرّأس وسائرِ حركاتِ الجسم وحُسنِ البيانِ واللسان"[66].

ويزيدُ الجاحظُ كلامَه المتقدّمَ فضلَ بيانٍ، كاشفًا عن أنّ لكلّ بيانٍ ضرورتَه، فجعلَ اللفظَ لأقربِ الحاجاتِ والصَّوتَ لما هو أنفسُ منذ ذلك، وجعل الكُتُبَ والمراسلاتِ للبعيدِ ممّن يحتاجُ الإنسانُ مخاطبتَه، وأضافَ مبيِّنًا بعضَ صُنوفِ لغةِ الجسد والحركة، وفضلَها على العقد[67]: "فأمّا الإشارةُ فأقربُ المفهوم منها: رفعُ الحواجِب، وكسْرُ الأجْفانِ، وليُّ الشِّفاه، وتحريكُ الأعناقِ، وقبضُ جلدَةِ الوجه؛ وأبعدُها: أن تلويَ بثوبٍ على مقطَعِ حبلٍ تُجاهَ عينِ النّاظر... وليسَ للعَقْد حظُّ الإشارةِ في بُعد الغايَة". فالإشاراتُ والإيماءَاتُ عندَ الجاحظ درجاتٌ، تتفاضلُ في الدّلالةِ على المرادِ مُصاحبةً اللفظَ، فإذا تعاضدَ اللفظُ والإشارةُ في الوضوح والصّوابِ وحسن الاختصارِ ودقّة المدخلِ، كانَ إظهارُ المعنى أدقَّ وأنصعَ، حتّى يبلُغَ المتكلّمُ ما تغيّاهُ[68].

إنّ ما تقدّم من عبارة الجاحظ عن أصنافِ الدّلالات دقيقٌ إلى حدّ بعيد، فطرقُ التّعبير عن المعاني التي قدّمها: اللفظ، والإشارة، والحساب، والخَطّ، وهيئة الحال في الأحياء والجَمادات، هي المتداوَلُ المعروف، غير أنّ أصنافَ الدّلالاتِ تتجاوزُها لتشمل: الموسيقى، والرّسم، والنّحت، ولعلّ التّفصيل الذي نجدُه في ما بعدُ لدى أبي حامد الغزاليّ في الحديث عن أصنافِ الوُجودات هو تفصيلٌ للدّلالة باللفظ اللغويّ[69]. وإذا كانَ اللفظُ والخطُّ يجتَمعان في كونهما من اللُغة، فإنّ الحسابَ هو لُغةٌ أُخرى تختلفُ في نظامها عن اللغةِ الصّوتيّة والكتابيّة، لكنّه قديمًا كانَ عندَ العرب بالعَقْد على الأصابع، وهو في هذه الحالةِ يشبُه أن يكون لغةً إشاريّة كلُغة الصُّمِّ والبُكْم الآن، لكنّه الآنَ تطوَّرَ ليصبحَ منظومةً يُعبَّرُ عنها باللفظ صَوتًا أو بالكتابة خطًّا، أو بالرّسومات والتّشكيلات البيانيّة والهندسيّة والمجموعاتِ والمصفوفات والعلائق المعرَّفة عليها[70].

وقد تنبَّه العربُ قديمًا على أثرِ لغة الجسدِ إيماءً وإشارةً وملامحَ في تحديدِ المعاني العميقة الخاصّة التي يُبطنُها المتكلِّم رغبةً في سترِها وإخفائِها عمّن يجالسونَهم، وهو ما نجدُه واضحًا لدى الجاحظِ بقوله[71]: "وفي الإشارةِ بالطّرفِ والحاجبِ، وغيرِ ذلكَ من الجوارحِ، مرفقٌ كبيرٌ ومعونةٌ حاضرة في أمورٍ يسترُها بعضُ النّاسِ من بعضٍ، ويُخفونَها من الجليسِ وغيرِ الجليس، ولولا الإشارةُ لم يتفاهمِ النّاسُ معنى خاصِّ الخاصّ، ولجهلوا هذا البابَ البتَّةَ".

ويتابعُ في موضعٍ آخر من جملةِ تآليفه بيانَ طبقاتِ الكلامِ وطبقاتِ دلالاته، جاعلاً من لغةِ الجسدِ في طبقةٍ خاصّ الخاصِّ حينَ تصحبُ الكلامَ الذي لا يكتفى فيه باللفظ. قال[72]: "ولا بدَّ لبيانِ اللسانِ من أُمورٍ منها إشارةُ اليدِ، ولولا الإشارةُ لما فهموا عنكَ خاصَّ الخاصّ، إذ كانَ خاصُّ الخاصِّ قد يدخُلُ في بابِ العامِّ إلاّ أنّه أدّى طبقاته، وليسَ يكتفي خاصُّ الخاصِّ باللفظِ عمّا أدّاهُ". مع العلم بأنّ ثمّة مؤشّرات كثيرة تدلّ على قدَمِ لغة الجسدِ وسطوتِها "قياسًا بالكلماتِ المنطوقة"[73].

دلالة لغة الجسد على المحسوسات:

ربطَ التّراثُ العربيُّ بينَ لغةِ الجسدِ إيماءً وإشارةً وحركةً وبينَ الدّلالةِ على المحسوسات؛ ذلكَ لأنّ الدّلالةَ بلغةِ الجسد –سوى في لغةِ الإشارةِ اليومَ– على الأمورِ المعنويّةِ أصعبُ، كما أنّه ليسَ مُتعارَفًا متداولاً ليبلُغَ درجةَ الدّلالةِ القطعيّةِ على المعنى المقصود. ولعلّ التّراثَ العربيَّ قد انطلقَ إلى منطلقًا ضمنيًّا يرى فيه أنّ بدءَ احتياجاتِ الإنسانِ كانت مادّيّة، وبدءَ تواصُله كان متّصلاً بتلكَ الاحتياجات. ولعلّنا نضيفُ أنَّ لغةَ الجسدِ محاولةٌ لتجسيدِ المعاني بالإشاراتِ والإيماءاتِ والحركاتِ وهيئةِ الحالِ وتلوُّنِ السِّحنَةِ وتشكُّلِها، وما من شكٍّ في أنّ القدرةَ على تجسيدِ المحسوساتِ أيسرُ –عبر هذه الوسائل– من تجسيدِ المعنويّاتِ والمجرّدات.

ويؤكّد السّيوطيّ هذا التّوجُّه إلى قصرِ الإشارةِ في الدّلالةِ على المحسوساتِ إذ رأى أنّ النّقوشَ والإشاراتِ يمكنُ أن تعبّر عن المحسوسات، "أمّا المعاني المجرّدةُ فلا"، وذلكَ بعكسِ الألفاظِ لأنّه قادرةٌ على "التّعبيرِ عن المحسوسِ والمجرّدِ معًا"[74].

كما تفطَّنَ بعضُ القدماءِ إلى أهميّة ما يُنتجُه ما يصاحبُ الكلامَ من هيئاتٍ، وتأثيرِها في تحقيقِ صدقيّةِ المتكلّمِ واستعدادِ السّامعينَ لتصديقه، أو تخييلِ ما يُريدُ هو من أغراضٍ في أذهانهم. وتذكُر بعضُ المصادرِ الأدبيّة أنّ الحجّاجَ كانَ يوظّفُ أساليبَ لُغويَّةً وهيئاتٍ جسديَّةً وتنغيماتٍ مصاحبةً لكلامه في خطبه؛ لكي يحقّقَ في نفوسِ السّامعينَ نقيضَ ما يعرفونَ عنه بالتجربةِ والخبرةِ المباشرة. قال مالكُ بن دينار: "لربّما رأيتُ الحجّاجَ يتكلّم

على منبره، ويذكُر حُسْنَ صنيعه إلى أهل العراق، وسُوء صنيعهم إليه، حتّى إنّه ليخيِّلُ إلى السّامع أنّه صادقٌ مظلوم، ببيانه وحُسْنِ تخلُّصه"[75]؛ وقال أيضا: "ما رأيتُ أبينَ أحدًا من الحجّاج! إنْ كانَ ليَرْقَى المنبرَ فيذكُر إحسانَه إلى أهل العراق، وصفحَه عنهم، وإساءتَهم إليه، حتّى أقول في نفسي: إنّي لأحسَبُهُ صادقًا، وإنّي لأظنُّهم ظالمينَ له"[76].

ولعلّ النّظر في صنيع الحجّاج حينَما وُلِّي العراقَ يكشفُ عن بعض ما تقدّم، فقد أبقى جيشَه خارجَها، ولم يدخُلَ إلى الكُوفة معه غيرُ اثني عشرَ جُنديّا في هيئة عاديّة. ثمّ قصد المسجدَ الجامع وصعدَ المنبر متلثِّما، وجلسَ فأطال الجُلوسَ والصَّمتَ حتّى ظنّ النّاسُ به عيًّا وعدم قُدرَةٍ على مُواجهتهم، وأخذُوا يحصبونَه بالحَصى، فلمّا استوثقَ من أنّهم جميعًا منتبهون وقفَ ونزعَ لِثامَه ووضعَ عِمامتَهُ وهو يقول بصوتٍ خشنٍ عالٍ:

أنـــا ابـــنُ جَـــلاَ وطـــلاّعُ الثّنايـــا مَتَـــى أضـــعِ العِمامـــةَ تعرفُـــوني

ومن مواقفه الجَدليّة المشهُورة وحِجاجه المشهُود ما صنعَه يومَ قتلَ عبدَ الله بنَ الزُّبَير بمكّة في البيت الحرام، وضجّ أهلُ مكّة بالبُكاء عليه، فقلبَ يومَها بُكاءَهُم عليه بحُسْنِ تخلُّصه.

المُقْنِعاتُ والحيلُ الإعداديَّة:

لعلَّ من الطّبيعيِّ تركيزَ المتخاطبينَ من المبصرينَ على النِّصف العُلويِّ من الجسد أكثرَ من تركيزهم على النّصف السُّفليِّ منهُ؛ ذلكَ لأَنّ أعلى الجسد يشتملُ على مجموعةٍ من الأعضاء التي تشاركُ في لغة الجسد أكثرَ من سائر أعضاء الجسم الإنسانيّ. في الوجه العيونُ، والشّفتان، والفكّان، وفيه السِّحنَةُ، والبشَرَةُ الظّاهرةُ اللون التي يتغيّرُ لونُها بتغيُّر أحوالها، وفيه اليدان والأصابع والكتفان والرّأسُ كلُّه والعُنُقُ. وغيرُ خافٍ أنّ هذه كلَّها تؤدّي حركاتٍ وتتّخذُ هيئاتٍ وتتشكّلُ بها ملامحُ دالّةٌ في لغة الجسد.

وقد رأى بعض الباحثينَ أنّ الوجوهَ استحوذت منذ عقودٍ على اهتمام خاصّ بينَ الباحثينَ في العلوم السّلوكيّة، والعصبيّة، ومعالجة الصُّور، وأنّ من أهمّ الأسبَابِ لذلك أنّه "يمكن استخدامُ الوجوه في التّعرّف على الانفعالات بواسطة التّعبيرات الوجهيّة المختلفة، وفهم وإدراك الكلام، وذلكَ حتّى عند الأفراد الذين لا يعانُونَ أيّ مشكلاتٍ سمعيّة. كما تقدّم الوجوهُ بعض المعلوماتِ التي يمكن استخدامُها في كشف الكذب"[77].

وقد كان ابن سينا دقيقًا جدّا في تمييزه بين دلالة الكلام على المعنى، ودلالة لغة الجسد التي جعلَها في إطارِ ما يصاحبُ الكلامَ من دلالاتٍ أخرى غير قوليّة؛ وذلك في سياق حديثِه عن المُقْنِعات، فقال في تعريفه للحالِ المحسوسةِ[78]: إنّها تقعُ مِنْ مثلِ مَنْ "يُخبرُ

ببشارة وسحنةُ وجهه سحنةُ مسرورٍ بَهِج، أو يُخبرُ بإظلال آفة وسحنةُ وجهه سحنةُ مذعُورٍ خائف". وظاهرٌ أنّ ابنَ سينَا يتكلّم على لغة الجسد التي يُحسُّها المشاهِدُ السّامعُ فيمَن يكلِّمُه، وهي تشتملُ على عدد من تشكيلات هيئة الوجه ولون البشرة ووضعيَّة العينَين وحركات التّلفُّت، بحيثُ تؤدِّي أثرَها المتوخَّى في الجُمهُور لتُحدثَ فيه تصديقًا واقتناعًا بما يُخبرُ عنهُ المتكلِّم، ويبدو لنا هذا الجانبُ مظهرًا من مظاهر التّأثير النّفسيِّ في المتلقِّي بحيثُ يُعَدُّ إعدادًا نفسيًّا لتصديق الكلام، وكأنّما هي ملمَحٌ من ملامح البرمجة اللغويَّة العصبيَّة في زمان النّاس هذا.

ولم يكن الفارابي أقلّ دقّة من ابن سينا، بل إنّه سبقَه إلى وصف ذلكَ بالتفصيل حينَما بيّن وظيفة هيئة الحال وأثرَها في الكلام، فضلاً عن دورها الأساسيّ في بيان المعنى والدّلالة عليه، وإحداث الأثر المطلوب في السّامع، وذلك في إطار تعداده لوسائل الإقناع والإفهام. إنّ الدّلالات المصاحبةَ للكلام أشدُّ تأثيرًا في إقناع المتلقّين من الكلام نفسه، بل إنّ الكلامَ لا يتأتّى له تحقيقُ الغاية المقصودة منهُ من دون ما يصاحبُه من إشارات جسديّة وهيئات في السّحنة والشّكل، فهذه هي التي تحقّقُ صِدْقيّة المتكلّم أوّلاً، وتهيّئُ المتلقّينَ لتخيُّل تلك الصِّدقيّة فيه، والشّرطُ الوحيدُ المطلوب فيها أن تكونَ منسجمةً مع الكلام نفسه، موافقةً لقالبه التنغيميّ من جهة، وللفكرة التي يُرادُ الدّلالة عليها من جهة أُخرى، وإلاّ فإنّ تلك الإشارات والهيئات تؤدّي دورًا مُعاكسًا، وتُفقدُ المتكلّمَ درجةً من صدقيَّته.

قال الفارابيّ: "ومنها سحنةُ وجه الإنسان أو شكلُه، أو شكلُ أعضائه ومنظرُها، أو فعْلُه عندما يتكلّم، مثل أن يُخبرَ بوُرود أمر مَخُوف قد قَرُب فيُرَى وجهُهُ وجهَ خائف أو هارب، أو يشيرُ بشيءٍ ويفعلُ ما يُشيرُ به عليه غيرُه، فذلكَ يُوقعُ التّصديق له. وإن عَمل غيرَ ما أشارَ به كانَ أقلّ إقناعًا، أو لم يكن له إقناعٌ أصلا. وقد يُستعملُ هذا الجنسُ مع أقاويل الفضيلة والنّقيصة؛ فإنّ السِّحنة والأشكال والمنظرَ والفعلَ تُخيِّل فيه حالاً يجعلُه مقبول القول، وتخيّلُ في خصمه حالاً يصيرُ بها مُطَّرَح القَول"(79).

وكان الفارابي قد تكلّم كلامًا تفصيليّا على ما يحقّق للمتكلّم قدرةً متميّزةً على إفهام السّامعين وإقناعهم، وذلكَ عن طريق استدراجهم بما أطلق عليه الانفعالات النفسانيّة، ولعلّ حديث الفارابي هذا يدلّ على مدى عناية الفلاسفة بصورة خاصّة بتحقيق الكلام للغرض منه، فركّزوا جهودَهم على بيان أساليب الإقناع والتأثير والإفهام، بل تمكين الآراء والأقاويل في نفوس السّامعين، واستثارة حميَّتهم بتلك الآراء، فضلاً عن تحقيق منزلة رفيعةٍ للمتكلّم ولرأيه لديهم، حتّى ليبلُغ الرّأي والقولُ عندهم رُتبةَ اليقين. وقد ينبغي لنا

التنبُّه على أنّ حديثه عن استدراج السّامعين لا يُقصَد منه الخداع؛ إنّما الغايةُ الأخلاقيّة منه هي تحقيق إقناعهم بالأخلاق الخيّرة التي تنبُو بهم عن القبائح، بما تجسِّدُه غايةُ الفلسفة من تحقيق السّعادة للإنسان(80).

غيرَ أنَّ ابنَ سينا كانَ أكثر دقّة في بيانِ المُقنعات حينَ تكلّم تفصيلاً على هيئة الحال المصاحبة للقول وأثرها في تحقيق المرادِ من إيصال المعنى، والتأثير في السامع، فضلاً عن إقناعه بالغرض المقصود. وقد بيّن هذا في سياق كلامه على الحال المحسوسة قائلاً: "وأمّا الحالُ المحسوسةُ– غير القول– فمثلُ من يخبرُ ببشارة وسحنةُ وجهه سحنَةُ مسرور بهج، أو يُخبرُ بإظلال آفة وسحنةُ وجهه سحنةُ مذعُور خائف، أو ينطقُ عن تقرير بالعذاب والثّواب؛ فمن ذلكَ ما تكونُ الحالُ الشّاهدةُ تتبعُ الانفعالَ النّفسيّ مثل السِّحنة والهيئة، ومن ذلكَ ما تكونُ الحالُ الشاهدةُ طارئةً من خارج مثل العقوبةِ أو المبرَّة"(81).

إنّ هيئة الحال التي وصفها ابن سينا آنفًا، أو الحال المحسوسة كما نصّ عليها، هي نفسُها الحيَل الإعداديّة التي وصفَها في مقام آخر من بيانه للمُقْنعات، وقد كان دقيقا جدّا حينَ كشفَ عن وظائف الحيَلِ الإعداديّة التيَ تؤدّيها مُصاحبةً للكلام نفسه. ولعلّ القارئَ لبعض نصوص ابن سينا يكتشف مقدارَ العنايةِ التي أولاها هُو وسَائرُ الفلاسفة أيضاً للوظيفة التّداوليّة للغة من جانب، ولنَجاحِ المتكلّم في تحقيق أغراضه من الكلام ثانيًا، ثمّ للعنايةِ باللغة تركيبًا وتنغيمًا وهيئةَ حالٍ مصاحبةً للكلام ليكونَ الفعلُ اللغويُّ منتجًا لا هذرًا لا قيمةَ لَه؛ ولعلّنا كذلك نتبيّن إيلاءهم أهميّة كُبرى لَلقيمة الحجاجيّة للغة دَفْعًا للشُّبهات وكسبًا للمؤيِّدين ورَدًّا على المشتبهين. قال: "وأمّا الحيلُ للإعدادِ للمذكور فتتوجّه نَحو مَن يُرادُ إقناعُه، ومَن يُرادُ إقناعُه إمّا المُفاوضُ نفسُه الذي تتوجّه إليه المفاوضَةُ، وإمّا غيرُه. وغيرُه إمّا ناظرٌ يحكُم بينَ المُتحاورين، وإمّا السّامعونَ من النظّارة. فههُنا: قائلٌ، وقولٌ، وسامعون. فالحيلةُ الإعداديةُ: إمّا أن تكونَ بحيثُ تجعلُ القائلَ مقبولَ القول، أو بحيثُ تجعلُ القولَ أنجَعَ، أو بحيثُ تجعلُ السّامعينَ أقبلَ. فأمّا القائلُ، فأنْ يتكلَّفَ الاستشهادَ بحال نفسه تكلُّفا إذا لم يكُنْ واقعًا بنفسه، وذلكَ أنْ يتكلّف الدّلالة على فضيلة نفسه، أو يتهيّأَ بهيئةٍ وسحنةٍ تجعلُ مِثْلَهُ مقبولَ القول"(82).

وينبغي النّظر إلى هذه الحيل الإعدادية في الإطار الكلّيّ الذي رسمَهُ ابنُ سينا، وسائر الفلاسفة أيضا، وهو إطارُ التّنبيه على أنّ اللغةَ وحدَها– بوصفها ألفاظًا تركّبُ للتّعبير عن أغراض النّاطقين بها– غيرُ كافية، وينبغي أن يتصرّف بها المتكلّم بما يجعلها تحقّق الوظيفة التي يتغيّاها باستخدامه لها. فإذا كانَ المتكلِّم باللغة يظنُّ أنّه يُحقِّق الغايةَ التي يسعى إليها بالكلام اللغويّ نفسه (القول) وهو الذي سمّاه ابن سينا هنا (العمود) ، فهو واهم لا محالة، لأنّ القولَ لا يتضمّن في ذاته غير المعنى المُراد، فهو دالٌّ على معنى، ولا

يتحقّق له إيصالُ ذلك المعنى، أو الدّلالةُ عليه بما يؤثّرُ ويُقنعُ ويُميل الإصغاء إليه، إلاّ بالحيل الإعداديّة التي تُهيِّئ السامعين لتقبُّل قوله، وإلاّ فإنّ الآراء والمعاني والأفكار قد تتساوى أحيانا، ولا يفضُلُ بعضُها بعضًا لدى السامعين، ولا يتهيَّأ لبعضها أن يكون أكثرَ صدقيَّة من سائرها إلاّ بما يُصاحبُه من حِيَل إعداديّة. قال يوضّح ذلك في سياق حديثه عن الخطابة إنّ لها عمودًا، ولها أعوانًا. أمّا عمودُها، فالقولُ الذي يُظَنُّ أنّه يُنتجُ بذاته المطلوبَ. و"أمّا الأعوانُ فأحوالٌ أيضا، وأقوالٌ خارجةٌ عن ذلكَ العمود. وذلك لأنّه لمّا لم يَكُن الغرضُ في الخطابةِ إصابةَ الحقّ، ولا إلزامَ العدْل بل الإقناعَ وحدَه، كان كلّ مُقْنِع مُناسبًا للغرض. وليس كلُّ ما يقنِعُ هو قولٌ قياسيّ أو تمثيليّ، أو شيء ممّا يجري مجرى ذلك، فإنّك قد تقنعُ بما يحكُمُ به المعروفُ بالصِّدقِ من غير أن تسُومَهُ إقامةَ البرهان، وتَقْنَعُ بما يُخبر به مَن تشهَدُ سحنَتُه وهيئتُه بما يُخبِرُ به، كالذي هيئتُه هيئةُ مرعُوبٍ مذعُور إذا حدّثك بأنّ وراءه فتنةً أو آفةً"[83].

وهو يفصّل القولَ في هذا في موضع آخر من حديثه عن الخطابة، ويردّ الأمرَ في ما يحقّق الغايةَ من الأقاويلِ الخطبيّة إلى ثلاثة أركانٍ أساسيّة هي: القول اللفظيّ الذي يشتمل على المعاني المراد إقناعُ المُخاطَب بها (العمود) ، والقول اللفظيّ الذي يُعينُ على تحقيقِ الإقناع وليسَ ممّا يشتملُ على الأفكار والمعاني التي يُرادُ الإقناعُ بها، وإنّما هُو مُعينٌ لا غير كالشّواهد والأمثال (النُّصْرة) ، والحِيَلُ التي تُعدُّ المخاطَبَ لتقبُّل الأفكار والمعاني المُراد التّعبيرُ عنها والاقتناع بها (الحِيلة) . قال: "فيعودُ الأمر إلى أنّ الأقاويل الخطبيّة التي يُرادُ بها التّصديقُ ثلاثةُ أصناف: العمودُ، والحيلةُ، والنُّصْرَةُ. والعمودُ: هو القولُ الذي يُرادُ به التصديق المطلوبُ بنفسه. والحيلةُ: هي قولٌ يُفادُ به انفعالٌ لشيء أو إيهامٌ بِخُلُق. والنُّصرةُ: قولٌ ينصُرُ به ما لهُ تصديق"[84]؛ ثمّ وضّح أنّ الحِيلَ "بعضُها مُعِدّاتٌ، وبعضُها تَزايينُ وتَزاويق"[85].

كما ناقشَ ابنُ سينا القضيّة نفسها في موضع آخر، جمع فيه بين الحيل الإعداديّة والتّنغيم، ولا سيّما في أثناء تفصيله في التحسينات والتوابع والترتيبات التي يُلجَأ إليها في اختيار الألفاظ والتعبيرات وترتيبها لتحقّق الغرض الذي تُساقُ من أجله، وهو الإقناع في الخطابة والتأثير في الشِّعر، فقال إنّ بعضَ هذه التوابع والترتيبات والتحسينات "متعلّق باللفظ، وبعضَها متعلّق بالترتيب، وبعضَها متعلّق بهيئات المتكلّمين، وهي أمورٌ خارجةٌ عن اللفظ والمعنى. فمنها ما يتعلّق بهيئة اللفظ ونغمته، ومنها ما يتعلّق بهيئة القائل فيخيِّل معانيَ، أو يخيّل أخلاقًا واستعدادات نحو أفعال أو نحو انفعال، وهذا هو الشّيء الذي يُسمّى الأخذَ بالوُجوه، ويسمّى نفاقًا. وهذا كما أنّه يصلحُ للشّعر من جهة ما فيه من التّخييل، فقد يصلحُ أيضا للخطابةِ، فإنّ التّخييل قد يُعينُ على الإقناع والتصديق"[86].

لغة الجسد بين النَّظر والتّطبيق:

يمثّلُ ابنُ جنّي المتأثّر بالفلسفة ظاهرةً فريدةً في هذا المجال، فهو من اللغويّينَ الذينَ نظّروا للغة الجسد وأهمّيّتها في جلاء المعنى المُراد، فضلاً عن أنّه كانَ مشهُورًا بتوظيف لغة الجسد في حلقاته العلميّة ودُروسه. ولعلّه جمع بين صِنفَي الدّلالة غير المقطعيَّة: لغة الجسد[87]، والتّنغيم، وذلك في بيانه أثرَ الحركات وهيئة سحنة الوجه فضلا عن تنغيم الكلام في المعنى، وتوجيه التركيب نفسه توجيها متنوّعا ليكون دالاً في كلّ مرّة من تشكُّل سِحْنة الوجه والحركات وهيئة تنغيم الصّوت بالكلام على معنى مختلف، لعلّه يبلغ حدّ التناقُض أحيانا. إنّ ثباتَ التركيب اللغويّ على وجه واحد، مع تغيُّر دلالته في كلّ مرّة، يدلّ على أنّ التّنغيم وهيئة الحال المصاحبة للقول مؤثّرانِ أساسيّان في تحديد المعنى أو الغرض المقصود من الكلام.

وقد يكونُ هذا المثالُ الذي ذكرهُ ابن جنّي أوضحَ الأمثلة في كُتب القدماء على الدّلالات غير اللفظيّة، وهو يقابلُ هنا النّماذجَ النّحويّة التي تمثّل للتّركيب وللدّلالات التركيبيّة، ومن الجدير ذكرُه أنّ هذه الدّلالات غير اللفظيّة غيرُ مسجَّلَة بأمثلة مكتوبة ناصعة الدّلالة في كُتب القدماء وبُحوثهم؛ ذلكَ لأنّ الدّلالةَ عليها في الكتابة أمرٌ عسيرٌ حتّى الآن في العربيّة التي لم تُخْدَم كما خُدمت الإنجليزيّة مثلاً في هذا الإطار.

وظاهرٌ لكلّ مطّلع أنّ الرّسومات والأشكال الدّالة على لُغة الجسد حديثةُ النّشأة، في حين أنّ العربيَّة المكتوبة كانت خِلْوًا تقريبًا إلى عهد قريب من علامات الوقف والتّنغيم المسمّاة علامات التّرقيم، إلاّ ما كانَ منها في كتاب الله سبحانه وتعالى، وحتّى هذه لم تُطوَّرْ إنّما ظلّت موقوفةً. قال ابنُ جنّي: "وكذلك تقول: سألناهُ فوجدْناهُ إنسانًا! وتمكّن الصّوتَ بإنسانٍ وتفخّمهُ، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سَمْحا أو جَوادًا أو نحو ذلك. وكذلك إذا ذَمَمْتَه ووصفْتَه بالضِّيق قلتَ: سألناهُ وكانَ إنسانًا! تَزْوي وجهَكَ وتقطّبُه، فيُغنِي ذلكَ عن قولك: إنسانًا لئيمًا أو لَحِزًا أو مُبَخَّلاً أو نحو ذلك"[88].

أمّا توظيفُه لغةَ الجسد في كلامه، فقد روي عنهُ أنّه كان يزمّ شفتيه، ويميلُ بوجهه، ويشيرُ بيديه كثيرًا بحركات حتّى أصبحَ موضعًا للسُّخرية والتّندُّر من بعض تلامذته في مجالسه، فقال أحدُهم يخاطبُه ممازحًا: "شبّهتُ مولايَ الشّيخَ وهو يتحدّث ويقولُ ببُوزه كذا وكذا بقردٍ رأيتُه اليومَ... يفعلُ مثل ما يفعلُه مولايَ الشّيخ"، وحينَ غضبَ أبو الفتح من تشبيهه بالقردِ تراجعَ الممازِحُ معتذرًا بطُرفة. وقد علّق المحقّق النّجّارُ قائلاً: "ولا ريبَ

أنّ الإشارةَ باليدِ أو الفم من الوسائل النّافعة، وكذلكَ أحوالُ المتكلّم من طلاقة الوجه أو انقباضه، وعلى ذلكَ قالوا: ربَّ إشارةٍ أبلغُ من عبارة"[89]. بل كانَ ابن جنّي مُعجَبًا ببيانِ فضلِ لغة الجسدِ في الأشعارِ والمأثورِ من كلماتِ البلغاء، ولعلّه كان يسوِّغُ فعلَهُ الخاصَّ دالاً على جدواهُ وفائدته كذلك، ففي معرض تعليقه على بيتِ نعيمِ بنِ الحارثِ السّعديّ:

تقــولُ وصَكَّــتْ وجهَهــا بيَمينِهــا: أَبَعْلــيَ هــذا بالرَّحَــى المُتَقاعِــسُ؟

قالَ[90]: "فلو قال عنها: أبعليَ هذا بالرّحَى المتقاعس، من غير أن يذكرَ صكَّ الوجه، لأعلَمنا بذلك أنّها كانت متعجِّبةً مُنكرةً. لكنّه لمّا حكى الحالَ فقال: وصَكَّت وجهَها بيمينِها، عُلِم بذلكَ قُوّةُ إنكارِها، وتعاظُمُ الصّورةِ لها؛ هذا مع أنّك سامعٌ لحكايةِ الحالِ غيرُ مشاهدٍ لها، ولو شاهدتَها لكنتَ بها أعرفَ لِعِظَمُ الحالِ في نفسِ تلكَ المرأة أبيَنُ، وقد قيلَ: ليسَ المُخبَرُ كالمُعاينِ".

ومن الجدير بالذّكر أنّ ثمَّةً فرقًا جوهريّا بين تناوُل كلٍّ من الفلاسفة واللغويّين للدّلالات المصاحبة للكلام نفسه؛ فالفلاسفةُ تناولوا هذه الدّلالات غير اللفظيّة في سياق كلامهم على أنواع الخطاب التي تظهرُ في حديثهم عن الأقاويل البرهانيّة والجدليّة والمُغالطيَّة والخُطبيَّة والشِّعريّة؛ الاصطلاحيّة منها أو الاستدلاليّة. أمّا اللغويّون، فملاحظاتُهم لا تعدُو نوعَ الخطابِ العاديّ غيرِ الاصطلاحيّ أو الاستدلاليّ. ويمكنُ استكشافُ صلةٍ بينَ غايةِ الأقاويل (أنواع الخطاب) عند الفلاسفة والدّلالات غير اللفظية المصاحبة للكلام نفسه، وهي عندهُم قائمةٌ على الإقناعِ في الخطابة والتّأثير في الشِّعر، واستمالةِ جمهور السّامعين والحكم في الجدل والمناظرة؛ ويمكنُ استكشافُ صلةِ مُناظرةٍ بينَ غايةِ الخطاب العاديّ عندَ اللغويّين وتلك الدّلالات، والغايةُ عندهم أداءُ المعنى وحُسنُ البيانِ عنه بما يحقّق الوظيفة التّداوليّة للغة؛ أي الفهم والإفهام!

خاتمة:

يُعدّ موضوعُ الدّلالات غير اللفظيّة من الموضوعات الحديثة في علوم اللغة، وهو من الموضوعات المهمّة في الدّرس اللسانيّ الحديث؛ وذلك بالنّظر إلى أهميّة الدّلالات غير اللفظيّة المصاحبة للفظ في تحديد معناه، وفي تحقيق الفهم والإفهام، وإحداث الأثر المطلوب في السّامعين.

وقد كشفت الدّراسةُ عن عنايةِ بعض أعلام العرب المسلمين من الفلاسفة واللغويّين بهذا الموضوع، واهتمامِهم بدرسِه وبيانِ جَوانبه التّفصيليّة أحيانا بأمثلة توضيحيّة. ولعلّ

أهمّ جانب من جوانب الدّلالات غير اللفظيّة تناولَهُ الدّرسُ الفلسفيّ واللغويّ لغةُ الجسد، التي وردت العبارةُ عنها بصور متعدّدة في التراث الفلسفيّ، مثل: الأخذ بالوُجوه، والنّفاق، والحيل الإعداديّة، وكلّها ممّا يتّصل بسِحنة المتكلّم وحركاته وملامحه في أثناء إفضائه بالكلام؛ فضلاً عن التّنغيم الذي هو القالبُ الصّوتيّ للكلام. ويمكنُ القول إنّ التّراث الفلسفيّ العربيّ، وكذلك الموسيقيّ، ما يزالُ زاخرًا بجوانب من هذا الموضوع حقيقةٍ بالتّناوُل والدّرس الجادّ.

وأبرزت الدّراسةُ تنبُّه بعض أعلام العرب المسلمين على أثر هذه الدّلالات غير اللفظيّة في تحديد معنى الكلام أوّلا، وفي تحقيق الأثر المُبتَغى منه في غاية الأمر. كما كشفَت عن وعيهم العميق بعلاقة هذه الدّلالات بالحالات النّفسيّة للمتكلّم، وبمناسبة الهيئات الجسديّة لشؤون الإنسان المتنوّعة: فردًا كانَ أو جماعةً. وهم بذلك سبقوا كثيرا من البحوث والدراسات الحديثة التي عنيت بدرس هذا الحقل من اللسانيّات، وكانَ يمكنُ لدراساتهم هذه التّطويرُ بمزيدٍ من العناية، بما يحقّق للعربيّة ذخيرة واسعة من المعرفة والتأصيل في ما يتّصل بالأساليب في الإقناع والمناظرة والجدل والدّعوة وفنون التّسويق وعرض الأخبار.

ولعلّ هذه الدّراسةَ تحثُّ الباحثين المتخصّصين على توجيه أنظارهم إلى هذا الحقل: لغة الجسد، والسّعي إلى البناء على ما أصّله أولئكَ الأعلامُ في هذا الجانب؛ ذلكَ لأنّه ممّا يحقّق للعربيّة خدمةً جليلة، ويُسدي صنيعًا طيّبا للعلم والبحث العلميّ، فضلاً عن ضبط أساليب الحِوار والإقناع والمناظرة والتأثير بكيفيّات محدّدة يمكنُ توصيفُها وتعليمُها للنّاشئة في المدارس، ولطلبة الجامعات في التّخصّصات ذات العلاقة؛ كالإعلام، والتّسويق، والمهن التّعليميّة والإرشاديّة.

الهوامش:

1. ثمّة مناقشات كثيرة لهذه الفكرة، منها مثلاً: المهيري، عبد القادر وزميلاه: النّظريّة اللسانيّة والشعريّة في التراث العربي، تونس، الدار التونسية، 1988، ص12.
2. المسدّي، عبد السلام: الدّلالة وتاريخيّة اللغة، مجلّة العربي، الكويت، العدد 450، 1996.
3. انظر تفريقَ ابن جنّي بين الكلام والقول: ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمّد علي النّجار، بيروت، دار الكتاب العربي، (د. ت) ، 1 ص 17–18.
4. أبو نصر الفارابي، محمّد بن طرخان: كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي وتقديمه، بيروت، دار المشرق، 1969، ص163.
5. احتار الباحثون في كل العصور في قضية من هم إخوان الصفا، لهذا لجأوا إلى الحدس والتخمين في معرفة محرري تلك الرسائل المجهولة التوقيع. يكشف أبو حيان التوحيدي أسماء خمسة من مؤلفي هذه الرسائل في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، الكتاب الذي يضم مسامرات سبع وثلاثين ليلة أمضاها في منادمة الوزير أبي عبد الله العارض. ويأتي ذكر إخوان الصفا في الليلة السابعة عشرة حيث يسأل الوزير عن زيد بن رفاعة وعن مذهبه، ويجيب التوحيدي: «هناك ذكاءٌ غالبٌ، وذهنٌ وقادٌ، ويقظةٌ حاضرة، وسوانح متناصرة، ومتسعٌ في فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات، وتبصرٍ في الآراء والديانات، وتصرفٍ في كل فنٍ... وقد أقام بالبصرة زمَاناً طويلاً، وصادف بها جماعةً لأصناف العلم وأنواع الصناعة؛ منهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، والعوفي وغيرهم، فصحبهم وخدمهم؛ وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات؛ ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفلة، وذلك لأنها حاويةٌ للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية».
6. انظر: إخوان الصّفا: رسائل إخوان الصّفاء وخلاّن الوفاء، بيروت، الدار الإسلامية، 1992، 3 ص114.
7. انظر: كتاب الحروف، ص 125–126.
8. انظر: رسائل إخوان الصّفاء وخلاّن الوفاء، 3 ص101.

.9 Wainwright, Gordon R. , Body Language, p. 185.

.10 E. T. Hall, The Silent Language, (Garden City, N. Y.: Doubleday, 1959) .

.11 J. Ruesch and W. Kees, Nonverbal Communication: Notes on the Visual Perception of Human Relations, (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1956) .

.12 R. L. Birdwhistell, Some Body Motion Elements Accompanying Spoken American English, in Communication: Concepts and Perspectives, ed. L. Thayer (Washington, D. C.: Spartan Books, 1971) , p. 71.

.13 M. Argayle, Social Interaction, (New York: Atherton Press, 1969) , pp. 70- 71.

.14 ويمكن إيجازُ الكيفيّات التي يساندُ بها التّواصل غير اللفظيّ نظيرَه اللفظيّ في:

التّكرار: فالتواصل غير اللفظيّ قد يُكرّر أحيانًا ما قيلَ بالألفاظ؛ كأن تُخبرَ أحدَهم بالتوجُّه يَمنةً ليبلُغَ محلاً يسأل عنه، وتشيرُ إليه بيدك ناحيةَ اليمين تُجاهَ المحلّ.

المُناقضَة: إذ إنّ التّواصل غير اللفظيّ أحيانًا يُناقضُ ما قيلَ بالألفاظ؛ ومثالُ ذلكَ أن تُخبرَ أحدَهم بأنّك تودُّه مع أنّ نبرةَ صوتِك وحدَّته وملامحَ وجهِك تدلُّ على غير ذلك.

الاستبدال أو التّعويض: فالحركاتُ والملامحُ أحيانًا تدلُّ وحدَها بدون الألفاظ على الحالة التي يعيشُها الإنسان؛ كأن يكونَ مُتعبًا عانى في يومِه مواقفَ أرهقتهُ جسديّا ونفسيًّا، وفي هذه الحالة يمكنُ الاستدلالُ على ذلكَ بدون القول: «أنا مُتعَب ونفسي غير مرتاحة».

التّطرية: فالتواصل غير اللفظيّ يؤدّي أحيانًا دورًا يخفّف من حدّة التواصل اللفظيّ؛ كأن يخفّف من حدّة ملاحظاتِ المسؤول السّلبيّة تجاهَ مرؤوس لم يؤدّ عمله بصورة جيّدة، وذلك للحفاظ على طبيعة العلاقة بين الطّرفين.

التّحديد اللهجيّ: إنّ حركات الجسد لا سيّما اليدين، وملامح الوجه، فضلا عن التّنغيم والنّبر، تؤدّي في كثير من الأحيان دورَ تحديد الأبرز في الكلام، أو المستثنى، أو المرفوض، أو المستحبّ، وكأنّها تناظرُ دورَ التقنيات التي نستعملها في الطّباعة من مثل: وضع ألفاظ بين أقواس، أو وضع خطوط تحت بعض العبارات، أو طباعة بعضها بحروف داكنة، أو بحروف مائلة أحيانًا.

الرّبط والتّنظيم: وهذا عادةً ما يكونُ في إطارِ المحادثة بين اثنين؛ ذلك لأنّ التّواصل بالمحادثة يقتضي الرّبطَ بين الأفكار والمواقف فضلاً عن تنظيمِها وتنظيم الوقتِ لكليهما، ويؤدّي التواصل غير اللفظيّ مثل هذه المهمّة هنا. انظر:

Cf. P. Ekman, Communication through Nonverbal Behavior: A Source of Information about an Interpersonal Relationship, in Affect, Cognition and Personality, ed. S. S. Tomkins and C. E. Izard, (New York: Springer, 1965) .

15. R. Harrison, Verbal- Nonverbal Interaction Analysis: The Substructure of an Interview, (Paper presented to The Association for Education in Journalism, Bekerely, California, August 1969) ; Knapp, Ibid, p. 11.

16. R. E. Buehler and J. F. Richmond, Interpersonal Communication Behavior Analysis: A Research Method, Journal of Communication 13 (1963) : pp. 146.

17. M. Reece and R. Whitman, Expressive Movements, Warmth, and Verbal Reinforcement, Journal of Abnormal and Social Psychology 64 (1962) : p. 234.

18. R. V. Exline, et al. , Visual Interaction in Relation to Machiavellianism and an Unethical Act, American Psychologist 16 (1961) : p. 396.

19. Knapp, Ibid, p. 12.

20. دي سوسيور، فرديناند: محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني، مراجعة أحمد حبيبي، مطابع أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د. ت.

21. عروي، محمد إقبال: السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد 24، عدد 3، 1996، ص191.

22. مبارك، حنون: دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدّار البيضاء، ط1، 1987، ص52.

23. دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص76.

24. قسم علماء السيميولوجيا هذه الأنساق قسمين: 1. أنساقًا دلاليّة طبيعيّة، وهي الموجودةُ في الطبيعة، ويوظّفها الإنسانُ بوصفها علامات. 2. وأنساقًا دلاليّة اجتماعيّة، وهي قائمةٌ على الاصطلاح والتّواضع؛ أي إنّها من إنتاج الإنسان، وتمتازُ هذه الأنساق بوصفها مؤسّسيّة. وتنقسمُ هذه الأنساقُ الاجتماعيّة قسمين هما: أ. أنساق دلاليّة لفظيّة. ب. أَنساق دلاليّة غير لفظيّة، وهذه غير قائمة على الألفاظ، إنّما على ما يصاحبُ الألفاظَ أحيانًا من حركات وتصويتات وإيماءات. انظر: السرغيني، محمد: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1987، ص36.

25. توسان، برنارد: ما هي السيميولوجيا؟ ترجمة محمد نظيف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1994، ص46.

26. لا بدّ من الإشادة هنا بالجهودِ التي بذلَها، وما زالَ يفعلُ، الزّميل العزيز مهدي أسعد عرار أستاذ اللسانيّات والعلوم اللغويّة بجامعة بير زيت برام الله الفلسطينيَّة، في هذا المجال، فله عدّة بحوثٍ رصينةٍ جديرةٍ بالتّقدير والثّناء، وفيها فوائدُ عميمة، وله كتابه الألمعيّ «البيان بلا لسان» الذي درس فيه لغة الجسدِ دراسة مستفيضةً جادّة، وأتى فيه بفوائد جليلة. عرار، مهدي أسعد: البيان بلا لسان، دراسة في لغة الجسد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

27. الزّاهي، فريد: الجسد والصّورة والمقدّس في الإسلام، أفريقيا الشّرق، بيروت، 1999، ص28.

28. انظر: زراد، جنّات: خطاب الجسد ونظام التّواصل الإشاري في المرويات الشفاهية الشعبية، مقاربة تداولية، مجلة الأثر، الجزائر، ص286. انظر:

univ- ouargla. dz/ Pagesweb/ PressUniversitaire/ doc/ .../ TSP0220. pdf

29. داود، محمد محمد: جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية: دراسة دلالية ومعجم، القاهرة، دار غريب، ط1، 2007، ص7. وانظر: حسام الدين، كريم زكي: الإشارات الجسمية: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 1991، ص26.

30. البرغوثي، بشير شريف: إدارة الجسد البشري، التواصل الإنسانيّ الجديد، زهران للطّباعة والنشر، عمّان، 2003، ص 9–10.

31. المرجع نفسه، ص 12–13.

32. انظر في هذا: عرار، مهدي أسعد: لغة الجسم وأثرُها في الإبانة، مرجع سابق، ص108؛ جوخان، إبراهيم: خطاب الجسم في شعر العذريّين، جميل بثينة نموذجًا، مجلّة سرّ من رأى، مجلّد8، عدد30، السنة الثامنة، تمّوز 2013، ص183. وهي رؤيةٌ قدّمها (بِيرْدوسِل) ، وهو يمثّل مرجعيّة أساسيّة في التأسيس لدراسة الدّلالة غير اللفظيّة في الفكر اللسانيّ الحديث، رؤية مذهلةً لما يحتلُّه التواصلُ غير اللفظيّ في حياتنا؛ فهو يرى أنّ الإنسان العاديّ يستعمل الألفاظَ في تواصلِه يوميًا مدّة تتراوحُ بين عشرِ دقائق وإحدى عشرة دقيقة، باعتبار أنّ الجملة الواحدة تستغرقُ ثانيتين ونصف الثانية. ويرى بيردوسِل أنّ التّواصُلَ العاديّ بين شخصينِ تُؤدّي فيه الدّلالات اللفظيّة أقلّ من 35% من المعنى الاجتماعيّ لحالة التّواصل، في حين تؤدّي الدّلالات غير اللفظيّة أكثر من 65% من ذلك المعنى. انظر:

Knapp, Mark L. , Nonverbal Communication In Human Interaction, (U. S. A.: Holt, Rinehart and Winston Inc. , 1972) , p. 12.

33. أبو عاصي، حمدان رضوان: الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، مجلّة الجامعة الإسلاميّة، سلسلة الدراسات الإنسانيّة، غزّة، فلسطين، مجلّد17، عدد2، يونيو 2009، ص57.

34. المرجع نفسه، ص82.

35. جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية، ص8.

36. تدخل لغة الجسد في إطار التّربية والتّعليم وإعدادِ المربّين والمشرفين، وتمتلكُ طاقةً تأثيريّة متعاظمة في الدّراسات التربويّة الحديثة. يقول جميل حمداوي: «هذا، وللسلوكات غير اللفظية تأثيرات سلبية وإيجابية على مستوى التواصل المعرفي والوجداني. ولمعرفة هذه السلوكات، لا بد للمدرس من الاطلاع على أحدث النظريات في علم التواصل واللسانيات والسيميوطيقا وعلم النفس وعلم الاجتماع، وكذلك ضرورة الاستمرار في التكوين وإعادة التكوين مع تجريب الآليات الحديثة في الملاحظة ومشاهدة السلوكات غير اللفظية كاستخدامه للڤيديو والحاسوب... ويلاحظ أن المدرس يوظف في قسمه أنواعا من الحركات، وكل حركة لها دلالتها ولها تأثيرها في عملية التواصل، وفي التأثير على المتلقي معرفيا ووجدانيا وحركيا. ومن بين هذه الحركات نستحضر: الحركات التعبيرية والحركات الإشارية والحركات العلائقية المتمثلة في حركات التقويم وحركات التلويح باليدين واستخدام خطاب العيون في التأديب أو التعبير أو التشخيص... وكذلك الحركات الجانبية الزائدة وغير الوظيفية كالنظر إلى ثيابه». انظر: حمداوي، جميل: التّواصل اللفظي وغير اللفظي في المجال البيداغوجي، مقالة منشورة على موقع:

www. arabicnadwah. com/ articles/ tawasul- hamadaoui. htm.

37. الإشارات الجسميّة، ص 30–31.

38. الكفويّ، أبو البقاء أيّوب بن موسى: الكلّيّات، تحقيق عدنان درويش ومحمّد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2011، ص367.

39. ناقش الباحث مهدي أسعد عرار بعض أقوال الجاحظ في لغة الجسم، متّخذًا منه نموذجًا لدراسة الظاهرة في التراث البلاغيّ، في بحثه: لغة الجسم وأثرها في الإبانة، مجلّة دراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية) ، مجلّد33، عدد1، 2006، ص 109–111.

40. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيّن، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، (د. ت) ، 1 ص76.

41. ابن هشام الأنصاري، جمال الدّين: شرح شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1960، ص 27–29.

42. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشّويمي، مؤسسة أ. بدران، بيروت، 1963، ص41.

43. أبو هلال العسكريّ، الحسن بن سهل: كتاب الصّناعتين، تحقيق علي البجّاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب (عيسى البابي الحلبي) ، القاهرة، 1952، ص11.

44. الكليات، ص637.

45. المصدر نفسه، ص598.

46. شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، شرح وتقديم عبد علي مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص326.

47. شرح شذور الذّهب، ص27، وانظر: عيد، عريب محمد: علم لغة الحركة بين النظريّة والتّطبيق، دار الثقافة، عمّان، 2010، ص75.

48. الجرجانيّ، عبد القاهر بن محمّد: أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول، 1979، ص 48–49.

49. المصدر نفسه، ص50.

50. المصدر نفسه، ص50.

51. حماية، ياسر: لغة الجسد، كيف تفهم الآخرين من نظرة عين؟ كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012، ص5.

52. كتاب الحروف، 87–88.

53. ابن طفيل، أبو بكر محمد بن عبد الله: حيّ بن يقظان، تحليل ودراسة جميل صليبا وكامل عيّاد، مطبعة جامعة دمشق، 1962، ص135.

54. المصدر نفسه، ص136.

55. انظر: أبو زيد، أحمد: حضارة اللغة، مجلّة عالم الفكر، مجلد1، عدد1، 1971، ص20.

56. انظر في مناقشة هذه الفكرة أيضًا: الفارابي، أبو نصر محمد بن طرخان: آراء أهل المدينة الفاضلة، قدّم له وشرحه إبراهيم جزّيني، بيروت، دار القاموس الحديث، (د. ت)، ص 132–134.

57. ولعلّنا لا نعدُو الصّوابَ باعتقاد أنّ لانهائيّة المعاني هي ما عبّر عنهُ الجاحظُ حينَما جعل المعاني مطروحةً في الطّريق، يعرِفُها البدويُّ والحضريّ، والعربيّ والعجَميّ، ثمّ تابع: «وإنّمَا الشِّعرُ ضَربٌ من النّسْج وجِنسٌ من التَّصْوير» وفي بعض النّسخ «ضربٌ من الصَّبْغ». فالعبرةُ بالعبارة اللغويَّة عن المَعنى، وهي التي تجعلُ المعنى ظاهرًا بعدَ خفائه، مشَخَّصًا بعدَ وَهْمِه في الفِكر. ولا نظنّه يتحدّث عن قُصور الألفاظِ أو اللغة في التّعبير عن المعاني.

58. البيان والتبيّن، 1 ص76.

59. المصدر نفسه، 1 ص 77–79.

60. الصفراني، محمد بن سالم: علم تجويد القرآن الكريم والشعر العربي الحديث، مجلّة علامات، مجلّد 19، عدد 73، أبريل 2011.

61. الحديثي، طلال سالم: لغة الجسد وفلسفتُه في التراث العربي، دار العراب ودار نور، دمشق، 2012، ص 122.

62. Wainwright, Gordon R. , Body Language, (U. K.: Teach Yourself Books, 2007) , pp. 3- 4.

63. كارلو، هنري: كيف تقرأ أفكار الآخرينَ من خلال حركاتهم، ترجمة دار الفاضل، دمشق، 2001، ط3، ص34.

64. البيان والتبيّن، 3 ص 119–120.

65. المصدر نفسه، 1 ص79.

66. لغة الجسد وفلسفتُه في التراث العربيّ، ص120.

67. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، 1996، 1 ص 47–48.

68. انظر البيان والتّبيّن، 1 ص75.

69. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: فيصل التفرقة بين الإسلام والزّندقة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، 1961، ص 49–53.

70. يعرف شارل كولي Charles Cooley التواصل قائلا: "التواصل هو الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور. إنه يتضمن كل رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان. ويتضمن أيضا تعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتلفون وكل ما يشمله آخر ما تم في الاكتشافات في المكان والزمان". ولعلّ القارئ لا يجدُ في هذا التعريف الحديث شيئًا يتجاوزُ ما قدّمه التّراث العربيّ، اللهمّ إلاّ في إضافة المخترعاتِ والوسائل والآلات الحديثة "الوسائط"، وهي داخلةٌ بصورة أو بأُخر تحتَ صنوفِ الجماداتِ. انظر: حمداوي، جميل: التّواصل اللفظي وغير اللفظي في المجال البيداغوجي، مقالة منشورة على موقع:

www. arabicnadwah. com/ articles/ tawasul- hamadaoui. htm

71. البيان والتبيّن، 1 ص78.

72. كتاب الحيوان، 1 ص50.

73. لغة الجسد وفلسفتُه في التراث العربي، ص167.

74. السّيوطي، جلال الدّين: المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجّاوي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1 ص36.

75. البيان والتبيّن، 2 ص193.

76. المصدر نفسه، 2 ص 268–269.

77. مجرية، أحمد محمد: هل تجذب الوجوه الانتباه؟ مجلة العلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، مجلّد 39، عدد4، 2011.

78. ابن سينا، أبو علي الحسن بن عبد الله: كتاب الشفاء، الخطابة، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1954، 4 ص10.

79. الفارابي، أبو نصر محمد بن طرخان: كتاب في المنطق، الخطابة، تحقيق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، ص38.

80. قال الفارابي: «ومنها استدراجُ السّامعين بالانفعالاتِ النفسانيّة التي تُميل قلوبهُم إلى تصديق القائل وتكذيب خصمِه، فمن ذلك استمالةُ الحاكِم وسائر الحضور إلى القائل وتمييلهم على الخصوم. ومن ذلك أن يمكّن في نفس الخصم انفعالاً يُضعِفُ به مُناصبتَه

ومُعارضتَه إيّاه، مثل غضَبٍ يُذْهِله. ومن ذلك أن يوطّئ القائلُ ببعض الانفعالاتِ نفْسَ المقصودِ إقناعُه لقبول ما يلتمسُ إقناعَه فيه؛ إمّا بتطييبِ نفسه، أو يُكسبُه بقولِه غضبًا أو رحمةً أو قسوةً، أو غير ذلكَ ممّا يرى القائلُ أنّه أنجَحُ في ذلك الوقت. وهذا الجنس من المُقنعاتِ له قوّة عظيمة في تمكينِ الآراء والأقاويل في النّفوس وحدوث الحميّة والعصبيّة وجلالةِ القائل والرّأي، حتّى تُذعنَ إليهم النّفوس وتتمكّن الآراء التي يأتون بها حتّى تصير في مرتبة اليقين عندهم». كتاب في المنطق، الخطابة، ص34.

81. كتاب الشفاء، الخطابة، 4 ص10.

82. المصدر نفسه، 4 ص10.

83. المصدر نفسه، 4 ص8–9.

84. المصدر نفسه، 4 ص12.

85. المصدر نفسه، 4 ص19.

86. المصدر نفسه، 4 ص197.

87. ناقش مهدي أسعد عرار بعض ما في خصائص ابن جنّي من أفكار وأقوال تتّصلُ بلغة الجسد، باتّخاذ ابن جنّي نموذجًا لدراسة لغة الجسم في التراث اللغوي. انظر: لغة الجسم وأثرها في الإبانة، مرجع سابق، ص 111–114.

88. الخصائص، 2 ص371.

89. المصدر نفسه، 1 ص247.

90. المصدر نفسه، 1 ص246.

المصادر والمراجع:

أولاً ـ المراجع العربيّة:

1. أبو زيد، أحمد: حضارة اللغة، مجلّة عالم الفكر، الكويت، مجلد1، عدد1، 1971.
2. أبو عاصي، حمدان رضوان: الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى، مجلّة الجامعة الإسلاميّة، سلسلة الدراسات الإنسانيّة، غزّة، فلسطين، مجلّد17، عدد2، يونيو 2009.
3. ابن أبي ربيعة، عمر: شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، شرح وتقديم عبد علي مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.
4. إخوان الصّفا: رسائل إخوان الصّفاء وخلاّن الوفاء، بيروت، الدار الإسلامية، 1992.
5. البرغوثي، بشير شريف: إدارة الجسد البشري، التواصل الإنسانيّ الجديد، زهران للطّباعة والنشر، عمّان، 2003.
6. توسان، برنارد: ما هي السيميولوجيا؟ ترجمة محمد نظيف، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1994.
7. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيّن، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، (د. ت) .
8. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، 1996.
9. الجرجانيّ، عبد القاهر بن محمّد: أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول، 1979.
10. ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمّد علي النّجار، بيروت، دار الكتاب العربي، (د. ت) .
11. جوخان، إبراهيم: خطاب الجسم في شعر العذريّين، جميل بثينة نموذجًا، مجلّة سرّ من رأى، مجلّد8، عدد30، السنة الثامنة، تمّوز 2013.
12. حمداوي، جميل: التّواصل اللفظي وغير اللفظي في المجال البيداغوجي، مقالة منشورة على موقع:

www. arabicnadwah. com/ articles/ tawasul- hamadaoui. htm

13. الحديثي، طلال سالم: لغة الجسد وفلسفتُه في التراث العربيّ، دار العراب ودار نور، دمشق، 2012.

14. حسام الدين، كريم زكي: الإشارات الجسمية: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 1991.

15. حماية، ياسر: لغة الجسد، كيف تفهم الآخرين من نظرة عين؟ ، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.

16. داود، محمد محمد: جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية: دراسة دلالية ومعجم، القاهرة، دار غريب، ط1، 2007.

17. دولودال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000.

18. دي سوسيور، فرديناند: محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني، مراجعة أحمد حبيبي، ط1، مطابع أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د. ت.

19. الزّاهي، فريد: الجسد والصّورة والمقدّس في الإسلام، أفريقيا الشّرق، بيروت، 1999.

20. زراد، جنّات: خطاب الجسد ونظام التّواصل الإشاري في المرويات الشفاهية الشعبية، مقاربة تداولية، مجلة الأثر، الجزائر. انظر:
univ- ouargla. dz/ Pagesweb/ PressUniversitaire/ doc/ .../ TSP0220. pdf

21. السرغيني، محمد: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1987.

22. ابن سينا، أبو علي الحسن بن عبد الله: كتاب الشفاء، الخطابة، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1954.

23. السّيوطي، جلال الدّين: المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجّاوي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.

24. الشريف الرَّضِيّ، أبو الحسن محمد بن الحسين: المجازات النبويّة، تحقيق مروان العطيّة ومحمد رضوان الدّاية، دمشق، 1987.

25. الصفراني، محمد بن سالم: علم تجويد القرآن الكريم والشعر العربي الحديث، مجلّة علامات، مجلّد 19، عدد 73، أبريل 2011.

26. ابن طفيل، أبو بكر محمد بن عبد الله: حيّ بن يقظان، تحليل ودراسة جميل صليبا وكامل عيّاد، مطبعة جامعة دمشق، 1962.

27. عروي، محمد إقبال: السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج24، ع3، 1996.

28. العسكريّ، أبو هلال الحسن بن سهل: كتاب الصّناعتين، تحقيق علي البجّاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب (عيسى البابي الحلبي) ، القاهرة، 1952.

29. عيد، عريب محمد: علم لغة الحركة بين النظريّة والتّطبيق، دار الثقافة، عمّان، 2010.

30. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: فيصل التفرقة بين الإسلام والزّندقة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، 1961.

31. الفارابي، أبو نصر محمد بن طرخان: آراء أهل المدينة الفاضلة، قدّم له وشرحه إبراهيم جزّيني، بيروت، دار القاموس الحديث، (د. ت) .

32. الفارابي، أبو نصر محمّد بن طرخان: كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي وتقديمه، بيروت، دار المشرق، 1969.

33. الفارابي، أبو نصر محمد بن طرخان: كتاب في المنطق، الخطابة، تحقيق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976.

34. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشّويمي، مؤسسة أ. بدران، بيروت، 1963.

35. كارلو، هنري: كيف تقرأ أفكار الآخرينَ من خلال حركاتهم، ترجمة دار الفاضل، دمشق، 2001، ط3.

36. الكفويّ، أبو البقاء أيّوب بن موسى: الكلّيّات، تحقيق عدنان درويش ومحمّد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2011.

37. مبارك، حنون: دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدّار البيضاء، ط1، 1987.

38. مجرية، أحمد محمد: هل تجذب الوجوه الانتباه؟ مجلة العلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، مجلّد 39، عدد4، 2011.

39. المسدّي، عبد السلام: الدّلالة وتاريخيّة اللغة، مجلّة العربي، الكويت، ع450، 1996.

40. المهيري، عبد القادر، وزميلاه: النّظريّة اللسانيّة والشعريّة في التراث العربي، تونس، الدار التونسية، 1988.

41. ابن هشام الأنصاري، جمال الدّين: شرح شذور الذّهب في معرفة كلام العرب، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1960.

ثانياً ـ المراجع الإنجليزيّة:

1. *Cf. P. Ekman, Communication through Nonverbal Behavior: A Source of Information about an Interpersonal Relationship, in Affect, Cognition and Personality, ed. S. S. Tomkins and C. E. Izard, (New York: Springer, 1965) .*
2. *E. T. Hall, The Silent Language, (Garden City, N. Y.: Doubleday, 1959) .*
3. *J. Ruesch and W. Kees, Nonverbal Communication: Notes on the Visual Perception of Human Relations, (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1956) .*
4. *Knapp, Mark L. , Nonverbal Communication In Human Interaction, (U. S. A.: Holt, Rinehart and Winston Inc. , 1972) .*
5. *M. Argayle, Social Interaction, (New York: Atherton Press, 1969) .*
6. *M. Reece and R. Whitman, Expressive Movements, Warmth, and Verbal Reinforcement, Journal of Abnormal and Social Psychology 64 (1962) .*
7. *R. E. Buehler and J. F. Richmond, Interpersonal Communication Behavior Analysis: A Research Method, Journal of Communication 13 (1963) .*
8. *R. Harrison, Verbal- Nonverbal Interaction Analysis: The Substructure of an Interview, (Paper presented to The Association for Education in Journalism, Bekerely, California, August 1969) .*
9. *R. L. Birdwhistell, Some Body Motion Elements Accompanying Spoken American English, in Communication: Concepts and Perspectives, ed. L. Thayer (Washington, D. C.: Spartan Books, 1971) .*
10. *R. V. Exline, et al. , Visual Interaction in Relation to Machiavellianism and an Unethical Act, American Psychologist 16 (1961) .*
11. *Wainwright, Gordon R., Body Language, (U. K.: Teach Yourself Books, 2007) .*